بهجة المهرة
بتفسير آيات
من سورة البقرة

د/ إبراهيم توفيق الديب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ، وكفي بالله شهيدا ، وأنزل عليه كتابا قيماً معجزاً خالداً مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، وذكري وهدي ورحمة وبشري للمسلمين، والصلاة والسلام علي النبي العربي الأمين ، خاتم النبيين ، وآخر المرسلين ، بلغ الرسالة وأدي الأمانة ، ونصح الأمة وكشف الله به الغمة، وترك أمته علي المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلي آله السادة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وأصحابه القادة الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا من المفلحين الظافرين، والتابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين .

وبعد : فإن القرآن الكريم آخر الكتب الإلهية زمانا ، وأفضلها نزولا ، وأكثرها حِكَماً ، وأعظمها قدراً ، وأعلاها ذكراً ، نزله الله علي عبده محمد ﷺ ليكون معجزة دائمة له ودليلاً علي صدقه ، وليهدي الثقلين الإنس والجن للتي هي أقوم ، ويخرجهم من الظلمات إلي النور بإذن ربهم إلي صراط العزيز الحميد ، وشرف الله به هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وجعله دستور الإسلام الشامل ، وأساسه الكامل ، وروحه وريحانه ، معجزا بالألفاظ والمعاني ، بحرا زخارا باللآلئ والدراري ، فياضا بالعلوم والمعارف ، مفتاحا لكل خير ، موصلا إلي كل بر . .

ولما كان القرآن المجيد بهذه المكانة العليا والمنزلة الفضلي التي نوهت بها وأشرت إليها،والناس في أمس الحاجة إلي فهمه وتدبره ليطبقوه ويعملوا به حفظه الله وصانه وعصمه من التحريف والتبديل، وقيض له من سلف الأمة وخلفها من عكفوا علي حفظه واستظهاره، وأكبوا علي قراءته ومدارسته، وواصلوا ليلهم بنهارهم حتي أسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم، واستعذبوا التعب في سبيل خدمته والغوص في خضمه لاستخراج معانيه التي يفتح الله بها عليهم، ففازوا وسعدوا وعزوا ، وكانوا من الذين أورثهم الكتاب واصطفاهم من عباده ، وظهر لهم نشاط علمي بارز بارع متنوع وفق ثقافاتهم التي برعوا فيها وأشربوا حبها وبزوا غيرهم فيها ، فمنهم من كتب في تفسيره ، ومن كتب في غريب ألفاظه، ومن كتب في إعرابه، ومن كتب في مجازه، ومن كتب في أقسامه ، ومن كتب في أمثاله ، ومن كتب في إعجازه ، ومن كتب في قصصه، ومن كتب في قراءاته.. إلي غير ذلك من العلوم والفنون السابحة في فلكه والمتعلقة به والتي ألفت فيها المؤلفات المتنوعة المتعددة،وكل فن تختلف مناحيه ومناهجه وفق مؤلفاته .

فالتفسير مثلا يتنوع إلي : تفسير تحليلي، وتفسير إجمالي، وتفسير بياني اجتماعي، وتفسير موضوعي، وتفسير علمي، وتفسير فقهي، وتفسير مقارن، وتفسير صوفي، وتفسير إشاري، وتفسير بالأثر، وتفسير بالرأي.. وكلها فروع لنوع واحد وفن معين ، وفي كل فرع من فروعه مؤلفات كثيرة ، ومصنفات وفيرة، تتفاوت مناهجها وتتغاير مسالكها .

وعلي الرغم من نزول القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ومن كثرة العلوم والمصنفات الدائرة في فلكه السابحة في محيطه ، ومن استمرار مدارسته والنظر فيه والغوص في أعماقه منذ نزوله إلي الآن لا يزال العلماء - علي تنوع تخصصاتهم - يقفون علي شاطئه ويشعرن أنهم ارتشفوا من رحيقه رشفات ، وأنه لا يزال غضا طريا - كما نزل - مفعما بالأسرار مترعا بالمعاني، فعجائبه لا تنقضي، وأسراره وجواهره لا تنتهي، وسيظل حجة قائمة علي أهل كل عصر ، وعطاؤه مستمرا إلي الأبد، ولا يخلق علي كثرة الرد، ومن ذا الذي يمكنه أن يحيط علما بكلام الله ، ويدرك أسراره وخفاياه، وجميع وجوه إعجازه وكنوزه.

وقد نزلت في القرآن العظيم آيات ووردت في السنة المطهرة آثار تدل علي عظمة القرآن وعلي رفعة قدر المشتغلين به ، الباحثين فيه ، الدارسين له ، المخلصين في نياتهم، العاملين به .

قال تعالي : «إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور»[(١)]

وأخرج البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وأحمد بأسانيدهم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».[(٢)]

---

(١) سورة فاطر ٢٩ - ٣٠ .

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ==

وأخرج الترمذي والدارمي بسنديهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالي: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله علي سائر الكلام كفضل الله علي خلقه». [1]

وأخرج الدارمي وغيره بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..». [2]

وقال إياس بن معاوية رضي الله عنه : «مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة لأنهم لا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب». [3]

== حـ٦، صـ٢٣٦، وسنن الترمذي أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في تعليم القرآن جـ٤ صـ٢٤٦ - ٢٤٧، وسنن أبي داود كتاب الصلاة باب في ثواب قراءة القرآن حـ٢ ص ٧٠، ومقدمة سنن ابن ماجه باب فضل من تعلم القرآن وعلمه صـ١٠٦، وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه حـ٢ ص٤٣٧، ومسند أحمد جـ١ صـ٥٧، ٥٨، ٦٩، ١٥٣، وروي نحوه عن علي ومصعب بن سعد عن ابيه رضي الله عنهم.

(١) انظر سنن الترمذي أبواب فضائل القرآن باب ٢٤ حـ ٤ صـ ٢٥٦، وقال عنه : حسن غريب، وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب فضل كلام الله علي سائر الكلام حـ ٢ ص ٤٤١، ونصف الحديث قدسي ونصفه الثاني نبوي.

(٢) انظر سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن حـ ٢ صـ٤٢٩، ٤٣١-٤٣٣ وروي الحديث مرفوعا وموقوفا علي ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي صـ ٢٢.

هذا. ومن رحمة الله بي ، وتشريفه لي، وفضله ومنته عليّ، أن جعلني من حفظة كتابه، والمشتغلين بدراسته، والمتخصصين في تفسيره وعلومه، ووفقني لتفسير بعض سوره والكتابة في بعض موضوعاته ومباحثه.

وأقدم اليوم للقارئ الكريم تفسيرا لآيات من سورة البقرة. إسهاما مني في خدمة كتاب الله ، وإبتغاء رضاه، ونيل الثواب في يوم المآب، وأسميته : «بهجة المهرة بتفسير آيات من سورة البقرة» راجيا من الله العلي الكبير العزيز الرحيم، الكريم الوهاب أن يعينني ويوفقني لإتمام تفسير هذه السورة ، ويسدد خطاي، ويجعلني ما حييت خادما لكتابه، عاملاً بأحكامه وآدابه، ضارعاً إليه أن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، نافعة لعباده وخلقه، ويتقبلها قبولاً حسناً، ويغفر لنا ذنوبنا، ويستر عيوبنا، ويثبت قلوبنا علي دينه ، ويختم لنا بالإيمان والسعادة، ويحقق لنا بفضله في الآخرة الحسني والزيادة، إن ربنا سميع قريب مجيب، وصلي الله وسلم علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه صلوات وتسليمات دائمات إلي يوم الدين.

يجدر بنا قبل الشروع في تفسير آيات من هذه السورة الكريمة أن نعرف القارئ باسمها، وعدد آياتها، وزمان ومكان نزولها، وفضلها، وغير ذلك مما يتعلق بها، ليكون علي دراية بها ، ويدرك عظم مكانتها، ورفعة قدرها، وعلو شأنها .

فاسمها المشهور المتواتر المتداول التوقيفي سورة البقرة، وكل أسماء السور توقيفية، أي تسميتها من الله تعالي، فهو الذي سمي كل سورة باسمها ولا دخل لأحد من الخلق في ذلك، قال الإمام جلال الدين السيوطي: « وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار » أ.هـ [1]

وكل سورة يوجد في ثناياها ما يناسب اسمها، فسورة البقرة مثلا ذكرت فيها قصة البقرة التي أمر الله قوم موسي عليه السلام بذبحها ليضربوا القتيل ببعضها فيحييه الله تعالي ليخبر عن قاتله وكان القاتل مجهولا .. وسيأتي توضيح القصة في موطنها من السورة إن شاء الله .

ووصف رسول الله ﷺ السورة وسورة آل عمران بالزهراوين، ووصفها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأنها سنام القرآن، ووصفها خالد بن معدان رحمه الله بأنها فسطاط القرآن، لأنها أطول سوره.وأجمعها للأحكام والأمثال والتوجيهات ، وستأتي النصوص الدالة علي ذلك عند الحديث عن فضلها.

(١) الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي جـ ١ صـ ٥٢.

وتنوع الأسماء والصفات يدل علي سمو المسمي وشرفه ، وعظمته وأهميته .

وعدد آياتها ٢٨٦ ست وثمانون ومئتا آية، وقيل ٢٨٧ سبع وثمانون ومئتان، ومعلوم أن تقسيم السورة القرآنية إلي آيات ، وترتيب الآيات أمر توقيفي بالإجماع، أما ترتيب السور القرآنية علي النحو الذي نراه في المصاحف ففيه خلاف بين العلماء والراجح أنه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء .

وهي أطول سورة في القرآن الكريم ، وفيها أطول آية في القرآن كله وهي آية المداينة: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلي أجل مسمي فاكتبوه ..» الآية (١)

وهذه السورة مدنية بإجماع العلماء، وطالت مدة نزولها إذ بدأ نزولها بعد هجرة الرسول ﷺ إلي المدينة، ونزل أكثرها في السنوات الأولي من الهجرة ، واستمر نزولها إلي قبيل وفاته ﷺ بفترة وجيزة، وآخر آية نزلت منها قوله تعالي: «واتقوا يوما ترجعون فيه إلي الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون».(٢)

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢.

(٢) سورة البقرة ٢٨١ وورد في بعض الآثار أنها آخر ما نزل من القرآن علي الاطلاق، وأن رسول الله ﷺ انتقل إلي الرفيق الأعلي بعد نزولها بتسع ليال، وبنزولها كمل القرآن نزولا، وكمل الدين، وتمت النعمة، ولله الحمد والفضل.
وتكلمت باستفاضة عن مكي القرآن ومدنيه، وعن ترتيب الآيات والسور في كتابي «الدر النظيم في مباحث من علوم القرآن الكريم» فارجع إليه إن شئت.

فتمام نزولها استغرق نحو عشر سنوات ، وذلك لطولها، ولأهمية ما تضمنته من مقاصد وتوجيهات وتشريعات.

وهذه السورة عظيمة القدر، رفيعة الشأن، عالية المقام، ويكفي في الدلالة علي فخامتها وسمو مكانتها ذكرها عقب أم القرآن – سورة الفاتحة – وطولها، واستغراق نزولها نحو عشر سنوات، واشتمالها علي آية الكرسي سيدة آي القرآن، وختمها بخواتيم من كنز تحت عرش الرحمن، لم يعطهن نبي قبل نبينا محمد ﷺ ومن قرأها في ليلة كفتاه.[1]

قال الإمام القرطبي: وهذه السورة فضلها عظيم، وثوابها جسيم، ويقال لها : « فسطاط القرآن، وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها » أ هـ.[2]

وورد في بيان فضلها وعظيم قدرها أحاديث كثيرة متنوعة، وآثار وفيرة متعددة، منها :

ما رواه الإمام مسلم والترمذي والنسائي وأحمد بأسانيدهم عن أبي

---

(١) ورد بهذا حديث عن رسول الله ﷺ أخرجه الشيخان وغيرهما بأسانيدهم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه : انظر صحيح البخاري كتاب المغازي باب حدثني خليفة حـ ٥ ص ١٠٧ وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة حـ٢ ص ٤٥٨، ومعني «كفتاه» كفتاه كل سوء..أو أجزأتاه عن قيام الليل.

(٢) – الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي صـ ١٣٢.

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان». (١)

وروي الإمام الطبراني وابن حبان وغيرهما بأسانيدهم عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لكل شئ سناما، وإن سنام القرآن سورة البقرة وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهارا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام». (٢)

وروي الترمذي وحسنه وابن ماجه والنسائي بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم يعني ما معه من القرآن ، فأتي علي رجل من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال : أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال : إذهب فأنت أميرهم، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية أن لا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن ، واقرأوه فإن مثل

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد حـ٢ ص ٤٣٦، وسنن الترمذي أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي حـ٤ ص ٢٣٢، ومسند أحمد حـ٢ ص٢٨٤، ٣٣٧، ٣٧٨، ٣٨٨.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ١ صـ ٣٣ ورواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه مختصرا وتكلم عن سنده فارجع اليه في سننه: أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي حـ ٤ ص ٢٣٢.

القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه في كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي علي مسك».[1]

وروي الإمام مسلم وأحمد بسنديهما عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين سورة البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».[2]

ومما يدل علي فضل السورة أيضا نزول كوكبة من الملائكة لسماعها وهي تتلي بفم أسيد بن حضير رضي الله عنه حتي جالت فرسه وكانت

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ ص ٣٢، وسنن الترمذي أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي حـ ٤ ص ٢٣٣، ومقدمة سنن ابن ماجه باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ص ٧٨، وورد نحوه عن أبي بن كعب رضي الله عنه. والجراب: وعاء من الجلد، ومعني محشو: مملوء، ومعني يفوح ريحه: ينتشر في كل مكان، ومعني أوكي: أغلق، والوكاء: خيط قوي تشد به الأوعية وتربط.

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة حـ ٢ ص ٤٥٧، ومسند أحمد حـ ٥ ص ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧، ووصفت السورتان بالزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظم أجرهما، والغمامة والغيابة: ما يظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوها، والمراد أن ثوابهما يكون كثيرا ويأتي يوم القيامة كغمامتين، والبطلة: السحرة، وسموا بذلك لمجيئهم بالباطل، وورد نحوه عن النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه.

مربوطة وكادت تؤذي ولده، والقصة مشهورة مروية في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة، ووقع نحو ذلك لثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه.[1]

.... إلي غير ذلك من الروايات والآثار الكثيرة المرفوعة وغير المرفوعة التي يطول ذكرها، ويضيق المقام عن حصرها، وكلها تشهد بعظم فضل هذه السورة، ورفعة قدرها.

ولعظم السورة وفخامتها ظل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يحفظها ويتعلم ما فيها من مقاصد وتشريعات نحو ثمان سنوات.

وهذه السورة هي السورة الثانية في ترتيب سور القرآن الكريم في المصاحف، والمناسبة بينها وبين السورة السابقة عليها وهي سورة الفاتحة واضحة جلية، إذ أن سورة الفاتحة أم القرآن ، ولما تضمنت بإيجاز أوصاف الله تعالي، وعبودية الخلق له ، واستعانتهم بـه وحده ، ودعاء طائفة منهم أن يهديهم صراطه المستقيم، ويثبتهم عليه، ويجنبهم سلوك المغضوب عليهم والضالين، وهم اليهود والنصاري ومن علي شاكلتهم[2]، ذكر الله سورة البقرة عقبها ورتبها بعدها لتفصل ذلك وتوضحه، واستهلها بالحديث

(١) انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن حـ٦ صـ٢٣٤، وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب نزول السكينة لقراءة القرآن حـ٢ صـ ٤٥٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ ١ صـ٣٣.

(٢) فسرت سورة الفاتحة في كتاب سميته : «إتحاف الجنان بتفسير أم القرآن» فارجع اليه إن أردت .

عن الكتاب الكريم، الهادي إلي الصراط المستقيم وإلي كل ما هو أقوم من الخصال والصفات.

ومن يمعن النظر في السورتين الكريمتين يستخرج وجوها أخري من المناسبات، وقد ذكر الإمام السيوطي كثيرا من المناسبات بين السورتين في كتابه :«تناسق الدرر في تناسب السور» فارجع إليه إن شئت.[1]

وهذه السورة يتناسب مطلعها ومقطعها إذ جاء في مطلعها ذكر المتقين العاملين بالكتاب، وصفاتهم، وجزائهم، وذم الكافرين بأنواعهم، وذلك من أول السورة إلي قوله تعالي :«يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم... » الآية ٢١.

وجاء في مقطعها مدح هؤلاء المتقين المؤمنين، وبيان تضرعهم إلي الله بالدعاء، وذم الكافرين والاستنصار عليهم، وذلك من قوله تعالي : «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون... » إلي آخر السورة الكريمة ٢٨٥ - ٢٨٦.

فتناسب مطلعها ومقطعها، وبدؤها وختامها، وهو وجه بلاغي عظيم، ومحسن بديعي فخيم .

(١) وهو مطبوع بعنوان : «أسرار ترتيب القرآن» وقام بتحقيقه الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا انظر ص ٧٦، ٨٣، وكتبت بحثا عن التناسب بين الآيات والسور في كتابي : «العقد الفريد في مباحث من علوم القرآن المجيد» فارجع إليه إن أردت المزيد ص٩ - ٩٠.

هذه السورة المباركة تشتمل علي كثير من الموضوعات الجليلة، والمقاصد النبيلة،[1] فهي تستهل ببيان عظمة القرآن الكريم ، وتوضح مواقف الناس منه ، وتأمرهم بعبادة الله وحده، وبالإيمان برسوله ﷺ الذي نزل عليه معجزة كبري خالدة وهي القرآن العظيم .

ثم تتكلم السورة عن جعل آدم عليه السلام خليفة في الأرض، وعما وقع بشأنه من الملائكة عليهم السلام ثم من إبليس الرجيم اللعين.

ثم تنادي السورة بني اسرائيل وتأمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق التي أخذها الله عليهم ، وتذكرهم بنعمه الكثيرة عليهم، ومنها إظهار المعجزات علي يد موسي عليه السلام، وإنجاؤهم من بطش فرعون وملئه، وتنعمهم بتظليلهم بالغمام ، والمن والسلوي وغيرها من النعم الجليلة الكثيرة.

وتكشف السورة سوء طويتهم ودنس قلوبهم، وخبث سلوكهم، وتنكرهم للنعم، فهم أرادوا أن يروا الله جهرة، وأرادوا أن يستبدلوا الذي هو أدني بالذي هو خير من الأطعمة، وقتلوا الكثير من النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس بغير حق، وكفروا بآيات الله ، وحرفوا بتعمد

---

(١) يستحسن للقارئ إن لم يكن حافظا لسورة البقرة أن يفتح المصحف علي السورة ويتابع ببصره وقلبه صفحاتها وآياتها وهو يقرأ هذا العرض الإجمالي لموضوعاتها ومقاصدها.

وإصرار كلام الله عن مواضعه ومن بعد مواضعه، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وعرضا دنيويا زائلا، وتعنتوا مع نبيهم موسي عليه السلام ، وآذوه كثيرا حتي صارت عنده حدة، واتهموا سليمان عليه السلام بالسحر، ورموه بالكفر.

وأزالت السورة الكريمة الشبه التي يتمسكون بها وفندتها - وهي شبه أوهن من خيط العنكبوت - في مسائل دينية تتعلق بالنسخ، وتحويل القبلة من المسجد الأقصي إلي المسجد الحرام، ونحوهما، وهي شبه مبعثها كراهية الخير والنعمة للعرب والمسلمين بغيا وحقدا وحسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

واستغرق الحديث عن بني إسرائيل وخاصة اليهود أكثر من ثلث السورة لأن كثيرا من اليهود كانوا جيران المسلمين بالمدينة وأهل خبث وغدر ودهاء ومكر، ولا يزالون مصدر البلاء وأساس الشر والمصائب في العالم .

وتتحدث السورة عن أحكام تشريعية كثيرة لأن المسلمين بعد هجرتهم إلي المدينة شرعوا بقيادة الرسول ﷺ في تأسيس وتكوين الدولة الإسلامية ، فكانوا في أمس الحاجة إلي منهج رباني وتشريع سماوي يطبقونه ويسيرون علي ضوئه وهديه في حياتهم، ولذا تتكلم السورة عن السعي بين الصفا والمروة ، وتأمر الناس بأكل الحلال الطيب، وتنهاهم عن تعاطي المحرمات، وتذكر آية البر الجامعة لبر العقيدة، وبر العمل، وبر الأخلاق، وتتحدث عن القصاص، والوصية ، والصيام، والاعتكاف، وجهاد أعداء

الإسلام، وإتمام الحج والعمرة لله، وكيفية الإنفاق وسبله، وحكم القتال في الشهر الحرام، والخمر والميسر، ورعاية اليتامي، ونكاح المشركات، وإنكاح المشركين، والحيض، والإيلاء، والطلاق، والرضاعة، والخطبة.

وتذكر السورة بعض عدد النساء، وطرفا من قصة طالون وجالوت، وتأتي بعد ذلك آية جامعة تتكون من عشر جمل، تتضمن صفات عظمي لله تعالي، وهي آية الكرسي سيدة آي القرآن الكريم .

وتذكر السورة طرفا من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ، وتبين فضل الإنفاق بإخلاص في سبيل الله ، وتحذر من الرياء، ومن الربا وتحرمه لأنه جريمة بشعة تزلزل بنيان المجتمع، وتقوضه، وتذكر كيفية المداينة، والرهن، وتنهي عن كتمان الشهادة، ثم تختم السورة بآيتين عظيمتين هما مسك الختام، فيهما دعاء مبارك لله تعالي، وإنابة وتضرع من قبل الرسول ﷺ والمؤمنين الصادقين في كل زمان ومكان بإعلان الإيمان الكامل والتسليم بكل ما أوحي الله به ، والسمع والطاعة لله، والدعاء بالغفران والعفو والرحمة، ورفع الأغلال والآصار عنهم، ونصرهم علي الكفار في كل زمان ومكان، فهو وليهم الذي نزل الكتاب وهو يتولي الصالحين ، وهو مولاهم والقادر علي ذلك وحده ، فنعم المولي ونعم النصير.

فهذه السورة المجيدة تهتم بأصول العقائد وتدلل عليها ، وتدعو بني إسرائيل إلي الإيمان برسول الله محمد ﷺ والانتظام في أتباعه والانضمام إلي جنده ، وتناقشهم فيما يتمسكون به من شبه ، وتبين تاريخهم المظلم

الحالك، وتكشف عن مؤامراتهم الخبيثة، وأخلاقهم الرذيلة الخسيسة، ليحذرهم المسلمون ، ويأمنوا مكرهم وغدرهم .

وتنطوي علي تشريعات كثيرة عملية ضرورية يحتاجها المسلمون ، وفي تطبيقها رقيهم ونهضتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، كما تنطوي علي بعض القصص والأمثال للعظة والاعتبار .

والسورة علي الرغم من طولها ، وكثرة آياتها ، وتعدد موضوعاتها، وتنوع مقاصدها وأغراضها ، متماسكة اللبنات، متعانقة الجمل والآيات، متناسقة الموضوعات - وهو شأن وحال سور القرآن العظيم كلها - فهي جديرة بأن توصف بالزهراء ، والفسطاط، والسنام، وأن تكون أول السور القرآنية في الترتيب ، بعد أم القرآن الحبيب.

تعريف إجمالي بكلمة «الم» ونظائرها

قال الله تعالي : «بسم الله الرحمن الرحيم، الٓمٓ »①

بدأ الله السورة الكريمة بقوله : «بسم الله الرحمن الرحيم، الم»، وعد بعض العلماء البسملة آية من كل سورة ذكرت في أولها، ولم يعدها البعض آية من كل سورة، وقال البعض إنها آية من سورة الفاتحة وحدها، ثم كررت في بدء السور الأخري للتبرك والفصل بينها.(١)

وعد بعضهم «الم» - ونظائرها - آية، ولم يعدها البعض الآخر آية، وجعلها جزءا من الآية التي بعدها.

ونريد أن نعرفك بها وبنظائرها في القرآن الكريم لتكون علي بينة منها وعلم بأقوال العلماء فيها، فنقول وبالله التوفيق:

افتتح الله تسعا وعشرين سورة في القرآن العظيم ببعض حروف الهجاء وهي : سورة البقرة ، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف (عليهم السلام)، والرعد، وإبراهيم (عليه السلام)، والحجر، ومريم، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، ويس، وص، وغافر، وفصلت، والشوري، والزخرف، والدخان، والجاثيه، والأحقاف، وق، والقلم.

---

(١) تكلمت عن الاستعاذة والبسملة وفسرتهما في كتابي «إتحاف الجنان بتفسير أم القرآن» وفي كتابي «النور والضياء في تفسير سورة الأنبياء».

والأحرف الهجائية التي افتتحت بها هذه السور يصل عددها بعد حذف المكرر منها إلي أربعة عشر حرفا، وهي وفق ترتيبها المعروف:

الألف، الحاء، الراء، السين، الصاد، الطاء، العين، القاف، الكاف، اللام، الميم، النون، الهاء، الياء.

وجمعها بعض العلماء في قوله: «نص حكيم قاطع له سر»

وجمعها بعضهم فى قوله: «طرق سمعك النصيحة»

وجمعها بعضهم في قوله: « صراط على حق نمسكه»

والظاهر أن الجملة الأخيرة من جمع وتأليف بعض الشيعة.

وهذه الحروف الأربعة عشر هى نصف حروف الهجاء، وتتضمن الحروف الأخرى التى لم تذكر، وتدل عليها وتشير إليها.

والحروف الأربعة عشر المذكورة تشتمل على أنصاف أجناس الحروف بالنسبة إلى مخارجها وصفاتها:

فذكر من الحروف المهموسة والمجهورة نصفهما، ومن الشديدة والرخوة نصفهما، ومن المطبقة والمنفتحة نصفهما، ومن المستعلية والمنخفضة نصفهما، ومن القلقلة نصفها الأقل لقلتها ولعدم تجزئة الحرف وتنصيفه.. إلي غير ذلك من مصطلحات تتعلق بصفات الحروف ومخارجها والنطق بها، يعرفها أهل اللغة والتجويد والقراءات..

والسور المذكورة بدئ بعضها بحرف واحد مثل : ص ، وبعضها بحرفين مثل: حم، وبعضها بثلاثة مثل: الم ، وبعضها بأربعة مثل : المص، وبعضها بخمسة مثل : كهيعص .

وجاءت كذلك جرياً على عادة الافتنان ووفقاً لأساليب كلام العرب ، وللإشارة إلى أبنية الكلم عندهم فإن الكلمة لا تقل عن حرف واحد في النطق مثل : «ق» من وقي ، و«ع» من وعى ، ولا تزيد عن خمسة أحرف أصول مثل : سفر جل .

ولم ترد كلها مجموعة فى أول القرآن ، أو فى بدء سورة واحدة وكرر بعضها ووزع للافتنان ، ولما في التكرار والإعادة من زيادة الإفادة ، وليكون أبلغ فى التحدى وشحذُ الهمم ولفت النظر كما كررت ووزعت قصص وأمثال وآيات وجمل في القرآن الحكيم .

وتنطق مقطعة بذكر أسمائها ساكنة الأواخر ، فتقرأ : الم مثلاً هكذا: ألفْ ، لامْ ، ميمْ ، كما يقال فى أسماء الأعداد : واحد ، اثنان ، ثلاث ، ولذا يسميها البعض من العلماء بالأحرف المقطعة .

وهذه الحروف المقطعة أسماء علي القول الراجح ، مسمياتها الحروف المبسوطة التى ركبت منها الكلمة ، لأنها تدل علي معنى فى نفسها ولم تقترن بزمن ، ويعتريها التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع والتصغير .. وغير ذلك مما يختص بالأسماء وقال باسميتها أئمة العلوم اللغوية ، وقولهم مبنى على الاستقراء والتتبع .

وأما الحديث الذى رواه الترمذى وغيره بسنديهما عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » [1]، فهو حديث محمول علي المعنى اللغوى لا الاصطلاحى ، لأن الاصطلاحى حادث ومتأخر فى الزمان، فهي حروف بالمعنى اللغوى ، أسماء بالمعنى الاصطلاحى .

وهذه الحروف الهجائية التي بدئت بها السور المذكورة كانت ولا تزال مثار تأمل وتفكر ، ومجال حوار وبحث ونظر ، وتنوعت فيها الأفكار ، وتعددت الآراء فى تعيين معناها ، ومراد الله منها ، وسر مجيئها علي هيئتها فى تلك السور ، حتى زادت عن عشرين رأيا جمعها العلامة جلال الدين السيوطى في كتابه : الإتقان في علوم القرآن » [2]،وإليك بعضها والتعليق عليها بإيجاز :

الأول : أنها من قبيل المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلم المراد منه، وهي سر من أسراره فى القرآن ، ونحن نقرؤها ونؤمن بها - كما نزلت - ونرد علمها إليه سبحانه .

---

(١) سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في من قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر جـ٤ صـ٢٤٨ ومما قاله الترمذى عنه : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) انظر الإتقان للإمام السيوطى جـ٢ صـ٨ - ١٢ .

ونزلت لابتلاء عباده واختبارهم أيؤمنون بالغيب أم لا ، فيثاب من يؤمن بالغيب ، ويوقن به ، ويخبت له ، ويعاقب من ليس كذلك ، وليظهر لهم نقصهم العلمي والبشرى .

وهو مذهب كثير من السلف من الصحابة وغيرهم ممن بعدهم . وسلكه بعض العلماء المتأخرين كالجلالين:جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى ، والشوكانى وغيرهم .

الثاني : أنها أسماء لحروف الهجاء ، ذكرت للفت عقولهم وقلوبهم لاستماع القرآن حين يتلي ، فالمشركون كانوا يوقنون أن محمداً ﷺ أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط الكُتَّاب قبل الوحي إليه ولا يزال أمياً ، فنطقه بأسماء هذه الحروف على الهيئة التى لا يحذقها إلا القراء والكتاب أمر مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة من ورق ، ويستدعى الانتباه ويستلفت النظر ويثير الأفهام ويجذب العقول إلي سماع ما يقول بإنصات وتدبر ، فهى بمثابة أداه أستفتاح وتنبيه ، وفيها أيضاً تنويه وتلويح بإعجاز القرآن لأن ألفاظ القرآن وجمله وآياته مركبة من هذه الحروف التي يعرفونها ويكونون منها ألفاظهم وجملهم وعباراتهم ، وقد تحداهم الله أن يأتوا بمثل القرآن ، ثم خفف الله عنهم الطلب فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، ثم بسورة مثله ، ثم بسورة من مثله ، فعجزوا رغم تطاول مدة النزول وإمهالهم فى كل مرحلة من مراحل التحدى وهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة والبيان ، وحازوا قصب السبق ولا نظير لهم في هذا الميدان، وكأن الله يقول لهم : إن القرآن مكون من عين ماتكونون منه كلامكم وقد تحديتكم به فلم عجزتم عن معارضته .

إن عجزهم دليل على أنه منزل من عند خالق القوى والقدر، وليس من صنع وتأليف البشر[1].

ولذا يأتي الحديث عن القرآن وبيان إعجازه وعظمته عقب هذه الأحرف من كل سورة بدئت بها كما في سورة البقرة حيث يقول تعالى: «الم.ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» ،ويقول في سورة آل عمران: «الم، الله لا اله إلا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه»، ويقول فى سورة الأعراف: «المص.كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه»، ويقول في سورة إبراهيم عليه السلام: «المر كتاب أنزلناه إليك ..» وهكذا.

أما السور التي لم يذكر فيها الحديث عن القرآن عقب البدء بأحرفها المقطعة وهي سورة مريم والعنكبوت والروم والقلم، فقد نوه الله بالقرآن وبين عظمته فى داخلها وثناياها.

قال الحافظ ابن كثير: إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين، وقد قرره الزمخشرى في تفسيره «الكشاف» ونصره أتم نصر، وإليه ذهب

---

(١) إذا عجز العرب المعاصرون لنزول القرآن عن معارضته والإتيان بسورة من مثله فغيرهم أعجز، وإذا عجز الإنس عن ذلك فالجن أكثر عجزاً، ولكون القران علياً عظيماً معجزاً تستحيل معارضته أو ترجمته من لغته العربية إلي غيرها من اللغات والذى يمكن ترجمته بشروط معروفة هو تفسيره وبيان معانيه فقط.

الإمام ابن تيمية وأبو الحجاج المزى وكل سورة افتتحت بالحروف ذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته مثل : الم ، ذلك الكتاب »[1]، «المص، كتاب أنزل إليك »[2]، «ألم ، تلك الكتاب الحكيم »[3]، «حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين »[4]، وغير ذلك من الآيات الدالة علي إعجاز القرآن[5].

الثالث : أنها أسماء للسور، وهو قول ضعيف ، لأن أسماء السور توقيفية ،ولأن كثيراً من السور يتحد بدؤها بأحرف معينة ، فـ «الم» مثلا توجد في أول سورة البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم .. الخ ، و«حم» توجد فى أول سبع سور متوالية وهى : غافر ، وفصلت ، والشورى، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاق ، وغير ذلك مما يلاحظ علي الأحرف المقطعة ، فهذا القول خال من التحديد والتمييز ، ويوقع في اللبس والاشتباه .

الرابع والخامس والسادس : أنها تشير إلى أسماء الله تعالى ، أو صفاته أو أسماء للقرآن ، وهذا القول ضعيف لا دليل عليه يعتد به ولأن هذه الأمور توقيفية ولا يصح أن تقال بالظن أو الاجتهاد .

---

(١) سورة البقرة ٢ .

(٢) سورة الأعراف ٢ .

(٣) سورة لقمان ٢ .

(٤) سورة الدخان ٣ .

(٥) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ صـ٣٨

السابع : أنها سيقت للقسم بها لبيان شرفها ، وهو قول ضعيف لأنه لا يفهم منها القسم ولا توجد صيغته ولا ما يشير إليها ، ولو قيل به للزم تقدير فعل القسم وفاعله وحرف القسم وجوابه فى مقام لا يصلح فيه التقدير والإضمار ، ولأن بعض هذه الأحرف جاء في أول بعض السور وتلاه القسم مثل قوله تعالي : «يس ، والقرآن الحكيم» ، «ق والقرآن المجيد» ، «ن والقلم وما يسطرون» [1].

الثامن : أنها تشير إلى أعداد حسابية ومدد أقوام وآجالهم وفق حساب الجمل أو أبى جاد .

وهو قول ضعيف بل باطل إذ ليس له دليل معتمد ، ولا يعتد بهذا الحساب ولا بأعداده وأرقامه ، وليس له أصل في الشرع ، وقد اشتهر به اليهود المشهورون بالسحر والشعوذة والتمويه منذ زمن بعيد ، أ قماهم الله وأخزاهم .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : من قال إنها دالة على معرفة المدد ويستخرج منها أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له ، وطار فى غير مطاره أهـ [2].

.. إلي غير ذلك من الآراء التى يطول ذكرها ، وكلها أقوال مرجوحة وضعيفة ، وليس عليها دليل يعول عليه ويعتد به ويستند إليه .

---

(١) سورة يس ٢ ، وسورة ق ١ ، وسورة القلم ١

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ صـ٣٨ .

ومما تقدم تعرف أن العلماء أمام هذه الأحرف فريقان :

فريق يرون أنها من قبيل المتشابه الذى لا يفسر ، ويلزم تفويض أمرها وكِلَةُ العلم بها والمراد منها إلى الله تعالى .

وفريق يرون أنها من قبيل المحكم ، ويتعين تعيين المراد منها وتفسيرها .

وهؤلاء مختلفون فى تفسيرها وتحديد المراد منها ومن ذكرها على هيئتها .

وأنا أميل إلى القول الأول لأن كبار الصحابة رضى الله عنهم وهم أدرى باللغة وأعلم بتفسير القرآن من غيرهم توقفوا عن الخوض في هذه الأحرف ونظائرها ، وفوضوا إلى الله علم المراد منها ، وإذا كان حالهم كذلك فغيرهم من باب أولى ، وما وسعهم يسعنا ، وليست هذه الأحرف متحدثة عن عقيدة أو أحكام عملية ، ولا يتعلق بها حكم دينى أو دنيوى سوى الإيمان بها والإثابة على قراءتها وحفظها .

ولأن هذا القول أسلم وآمن من الزلات والعثرات والمخاطر وأورع وأحكم ، وقال به معظم السلف ومن بعدهم من الأئمة المحققين والعلماء المدققين .

ولأن فتح الباب لتفسيرها وتحديد المراد منها يؤدى إلى الاختلاف والمراء والقول فى القرآن بالظن الذى لا يغنى من الحق شيئاً .

ويجد المستشرقون وأذنابهم من أعداء الإسلام الفرصة سانحة للافتراء على القرآن والطعن فيه واختلاق الأباطيل والترهات عليه ، أعاذنا الله منهم،وحفظنا من كيدهم ومكرهم،وجعل كلمتهم السفلى ، وكلمته هي العليا .

ورد عن أبى بكر وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وعامر الشعبى وغيره رحمهم الله قولهم : إن لكل كتاب سرا ، وسر الله فى القرآن فى الحروف التى فى أوائل السور[1].

وورد عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله :

التفسير علي أربعة : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله[2].

قال الإمام بدر الدين الزركشي عند شرحه لقول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازى جـ٢ صـ٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ١٣٣ - ١٣٤ ، والإتقان للسيوطى جـ٢ صـ ٨ .

(٢) انظر مقدمة تفسير ابن جرير الطبرى جـ١ صـ٣٤ ، وهو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى عمدة المفسرين ورائد المؤرخين أفردته بكتاب بعنوان : الإمام ابن جرير ومنهجه في التفسير .

.. وأما ما لا يعلمه إلا الله فهو ما يجرى مجرى الغيوب كالآيات التى تذكر فيها الساعة والروح والحروف المقطعة .. أ هـ (١).

وقال أبـو حاتم : لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا فـي أوائل السور، ولا ندرى ما أراد الله عز وجل بها (٢).

وقال الإمام الرازى : واعلم أن الكلام في أمثال هذه المواضع يضيق ، وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه ، فالأولي أن نفوض علمها إلي الله تعالي (٣).

وقال الإمام البيضاوي : إن معناها لا يعرف لأن القرآن نزل علي العرب بلغتهم ، فلا يحمل ما ليس في لغتهم .

وقال العلامة أبو حيان : حروف التهجي هذه التي في أوائل السور اختلف الناس في المراد بها اختلافاً كثيراً ، ولم يقم دليل علي تعيين شئ مما ذكروه، والذي أختاره هو ما ذهب اليه الشعبي والنووي وجماعة من المحدثين ، قالوا : هي سر الله في القرآن ، وهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالي بعلمه ، نؤمن بها، ونمرها كما جاءت (٤).

---

(١) انظر البرهان لبدر الدين الزركشي جـ٢ صـ١٦٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي صـ١٣٤ .
(٣) التفسير الكبير للرازى ويسمي مفاتيح الغيب جـ٢٧ صـ١٤١
(٤) انظر النهر الماد من البحر لأبي حيان جـ١ صـ٣٢ .

وقال جلال الدين السيوطى : والمختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى [1].

وقال الشيخ الصاوى في حاشيته على تفسير الجلالين عند تفسير سورة ص : تقدم غير مرة أن هذا القول أسلم ، لأن تفويض الأمر في المتشابه لعلم الله هو غاية الأدب [2].

وقال الإمام الشوكانى : .. قد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف علي علمه مع كونه ألفاظاً عربية وتراكيب مفهومه ، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ فكيف بما نحن بصدده ، فإنه ينبغى أن يقال فيه إنه متشابه المتشابه علي فرض أن للفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مدخلاً ، فكيف وهو خارج عن ذلك علي كل تقدير ..

والذى أراه لنفسى ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأمة أن لا يتكلم بشئ من ذلك ، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ، ولا تهتدى إليها أفهامنا ، وإذا انتهيت إلي السلامة في مداك فلا تجاوزه أ هـ [3].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطى جـ٢ صـ٨ .
(٢) انظر حاشية الصاوى علي تفسير الجلالين جـ٢ صـ٢٩١ .
(٣) انظر فتح القدير للإمام الشوكانى جـ١ صـ٣١ - ٣٢ .

هذه قطوف من أقوال الأئمة المؤيدة للقول الأول وأنا أميل إلى الأخذ به ، لما سبق تقريره .

والقول الثانى الذى قال به كثير من الخلف لا يخلو من وجاهة وقبول، ويلى القول الأول فى المرتبة ، والله أعلم .

وأما إعراب هذه الفواتح فهو متوقف على تحديد المراد منها : فعلى القول بأنها أسماء للسور ، أو لله تعالى ، أو للقرآن ، تكون معربة أى مرفوعة على الابتداء والخبر مقدر أي الم متخدى بها وبنظائرها ، أو مرفوعة على الخبر والمبتدأ مقدر أى المتحدى به ألم وجنس هذه الحروف ، أو منصوبة على تقدير فعل وتكون مفعولاً به .

وعلى القول بأنها سيقت للقسم تكون مجرورة على تقدير حرف الجر .

أى يكون لها محل من الإعراب علي هذه الأقوال.وحركة الرفع أو النصب أو الجر مقدرة .

وعلي جميع الأقوال الأخرى لا تكون معربة ولا مبنية وإنما يوقف عليها وقف التمام كأسماء الأعداد ، لأن الإعراب فرع معرفة المعنى ولم نعرفه ، ولا يوجد ما يستدعى إعرابها أو بناءها فتكون آية مستقلة - كما يرى بعض العادين من العلماء للآيات - يوقف عليها وقفاً تاماً ،،

والله أعلم ،،،

عظمة القرآن الكريم

واهتداء المتقين به وجزاؤهم

قال الله جل ذكره وتعالى جده :

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(٢) ،الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٣) ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٤) ،أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» (٥):

والمناسبة بين هذه الآيات الكريمة وبين التي قبلها - على مذهب من عدها آية مستقلة - ظاهرة جلية ، فإن الأحرف المتقدمة «الم» ونظائرها يتكون منها الكتاب العظيم العالى القدر المنزه عن الريب والشكوك الهادى لطائفة من الناس إلى سبل الخير ، وهم أحق بها وأهلها لا تصافهم بصفات جليلة ، وتحليهم بخصال نبيلة ، فى صدارتها صفة التقوى .

وجملة «ذلك الكتاب» مستأنفة ، ومبينة للمتحدى به ، ، ومنوهة بشأنه ، و«ذلك» اسم إشارة يعود إلى الأحرف الثلاثة السابقة ، أى ما تقدم من أحرف ونظائرها يتكون منها الكتاب .

ويجوز أن يكون المراد باسم الإشارة : الكتاب

وإن جعلت «الم» موقوفة أي غير معربة ولا مبنية كان اسم الإشارة

مبتدأ ، و«الكتاب» خبره ، وجملة «لا ريب فيه» خبرثان ، و«هدى» خبرثالث .

ويصح أن يكون «الكتاب» عطف بيان أو بدلاً .

وإن جعلت «ألم » اسماً للسورة وكانت في محل رفع صح إعرابها مبتدأ ويكون اسم الإشارة مبتدأ ثانياً ، و«الكتاب» خبر، والجملة فى محل رفع خبر المبتدأ الأول .

وجملة «ذلك الكتاب» تفيد الحصر ، وطريقه تعريف الطرفين أى ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل الذى لا يوجد ما يضاهيه ولا ما يدانيه ، كما تقول : هو الرجل ، أى الكامل في الرجولة ، الجامع لخصال كثيرة حميدة لا تتواجد ولا تتكامل فى غيره .

وجاء اسم الإشارة الموضوع في اللغة ليشار به إلي البعيد لبعد منزلة الكتاب في الرتبة ، وعلو قدره ، وارتفاع منزلته من كافة الوجوه ، أي نزل بعده في الرتبة وعلوه في المكانةَ منزلة البعد الحسى .

وصحت الإشارة إلي «الكتاب» ووصفه بالكمال رغم أن نزوله لم يكتمل ولم يتم وكان لا يزال يتنزل ، لأن الله وعد رسوله بإتمام نزوله ، ووعْده لا يتخلف ، وما كان متيقنا محقق الوقوع على التمام يصير كالواقع بالفعل ويخبر عنه ، قال تعالي : «لا تحرك به لسانك لتعجل به ،

إن علينا جمعه وقرآنه » فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » [1]، وقال: «إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » [2]

والكتاب» مصدر : كتب ، يقال : كتب يكتب كتبا وكتابا وكتابة، والكتب في الأصل : ضم أديم إلي أديم بالخياطة .

ومعناه فى العرف : المكتوب بإعتبار انضمام حروفه بعضها إلى بعض بالخط .

ويطلق الكتاب على : المضموم بعضه إلى بعض باللفظ ، ولذا سمى القرآن كتاباً قبل أن يكتبه أصحاب الرسول ﷺ ، أى سمى بهذا بإعتبار ما سيئول إليه .

والمراد بالكتاب هنا : الكلام المعجز المنزل على رسول الله محمد ﷺ المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه المنقول إلينا بالتواتر .

وهو اسم من أسمائه المشهورة المتواترة المتداولة على الشفاه والألسنة، وعلم عليه بالغلبة ، وهو مكتوب مدون في اللوح المحفوظ وفي صحف الملائكة عليهم السلام .

وفى تسمية القرآن بالكتاب بشارة بدوام بقائه واستمرار خلوده ، وسعة انتشاره فى أرجاء الأرض ، وحفظه فى السطور والصدور ، ودلالة

---

(١) سورة القيامة ١٦ - ١٩ .

(٢) سورة المزمل ﷺ ٥

على أنه حظى بالكتابة والتسجيل بين يدى رسول الله ﷺ منذ بدء نزوله إلى انتهائه ، وقد قال ﷺ : «لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه »[1]،ثم نسخ ذلك الحكم وأذن لهم فى كتابة غيره ، فدون الكاتبون من أصحابه السنة كما دونوا القرآن .

«لا ريب فيه » :

والريب : مصدر: يقال : رابه الأمر ، يريبه : إذا حصلت عنده فيه ريبة .

والريبة : قلق النفس وعدم اطمئنانها واضطرابها من مكروه أصابها ، أو تتوقعه ، ثم استعملت المادة المذكورة فى مطلق الشك.ويري ابن الأثير رحمه الله أن الريب أخص من الشك ، لأن الريب هو الشك مع التهمة .

ونفى الله عن القرآن كل ألوان الريب وأشكال الشك لأن القرآن لعظم شرفه وقوة سلطانه ووضوح برهانه وسطوع حجته لا يمكن أن يرتاب ذو عقل مفكر ولب متدبر أدنى ارتياب في كونه وحيا من الله إلي رسوله ، ومصدر إصلاح وخير وينابيع هداية وبر .

ومن ارتاب فيه من الكفرة ووصفه بما هو منزه عنه فإنما دفعه إلى

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد والدلومى بأسانيدهم عن أبى سعيد الخورى رضى الله عنه ، انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الزهد باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم جـ٥ صـ٨٤٧ ، ومسند أحمد جـ٣ صـ١٢ / ٣٩/٣١ ، ومقدمة سنن الدارمى باب من لم ير كتابه الحديث جـ١ صـ١١٩ .

ذلك عدم تدبر آياته بإخلاص ، وجحده للحق حسداً و حقداً وبغياً على العرب والمسلمين ، أو حبه للشهرة والمناصب الدنيوية الزائلة ، وتعصبه لها واستحبا به العمى على الهدى ، وإن عدم رؤية الأعمش للشمس لا يضيرها ولا ينفى وجودها وظهورها ، وصدق الشاعر فى قوله :

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة .·. فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

وجملة «لا ريب فيه» خبرية لفظاً إنشائية معنى أى لايرتب أحد فى حقيته.ونفى الريب يستلزم نفى الشك .

وتقديم الريب على الظرف - الجار والمجرور- تقديم طبعى لأن الريب اسم «لا» الناقية للجنسى، وهو فى الأصل مبتدأ، وللمبتدأ حق التقديم والصدارة، ولأن هذا الترتيب يفيد نفى كل ألوان الريب وغيوم الشك عن القرآن، ولو أخر الريب وقدم الظرف - لافيه ريب - على غرار قوله تعالى: «لافيها غول»[1] ، لظن أن في الكتب الإلهية السابقة النازلة على الرسل السابقين أرتياباً وشكا في نزولها من عند الله ، وإن القرآن وحده المحفوظ من الريب والتهم ، وهو خطأ إذ أن كل الكتب الإلهية نازلة من عند الله وأحق بعدم الارتياب فيها ، وليست محلًّاله، لكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا فى الكتب السابقة ليشتروا بآبات الله ثمنا قليلا وحطاما زائلا .

و «هدى» خبر لما تقدم ، ويصح أن يكون اللفظ خبراً لمبتدأ مقدرتقديره : هو هدى .

(١) سورة الصافات ٤٧ .

وأما إعرابه مبتدأ قدم خبره وهو «فيه» فمرجوح لأن الوقف علي كلمة «لا ريب» مرجوح ، والأولى أن يكون الوقف على كلمة «فيه» بدليل قوله تعالي : «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين» (١).

وقرأ أبو عمرو «فيه هدى» بالإدغام أى إدغام الهاء في الهاء وذلك بإسكان الحرف الأول وإدغامه في الثانى ليعمل اللسان مرة واحدة.وقرأ باقى القراء بالإظهار إتياناً بالكلام علي أصله وأداء لحق كل حرف من الإعراب لتكثر الحسنات وتضاعف (٢).

و«هدى» مصدر بمعنى اسم الفاعل ، يقال : هدى يهدى هدى وهداية.

وفى وصف القرآن بالمصدر «هدى» مبالغة بليغة لإفادة أنه هو نفس الهدى ، وأن الهدى إلى الخير مصاحبه لا ينفك عنه .

وفي مجيئه نكرة تعظيم وتفخيم ، وفي الجملة مجاز عقلي علاقته السببية لأن الهداية أسندت إلي القرآن والهادي فى الحقيقة والواقع هو الله تعالى .

ومعنى الهدى : مطلق الدلالة والإرشاد إلى طريق الخير وإبانة الحق وإيضاح المحجة سواء سلكها المبين له أوْلا .

والمراد بالهدى هنا : الدلالة الموصلة إلى المطلوب والبغية بتفضل الله

---

(١) سورة السجدة ٢ .

(٢) انظر حجة القراءات لأبي زرعة ص٨٣ - ٨٤ .

على العبد بالتوفيق والقبول ، بدليل إضافتها إلى المتقين ، والهداية بالمعنى الثانى هداية خاصة ، وعلى المعنى الأول تكون هداية عامة ، والهداية بمعناها الخاص تستلزم الهداية بمعناها العام.ولا تستلزم الهداية بمعناها العام الهداية بمعناها الخاص .

ويقابل الهدى : الضلال .

والله تعالى هو الهادى والمضل ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء من خلقه وفق علمه الأزلى بهم ، وعلمه ثابت لا يتغير ، ولا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، قال تعالي :« من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً »[1]، «من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» ، «من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون»[2].

وتسند الهداية في القرآن إلى الرسول ﷺ بإعتباره دالاً للناس على الخير وموجها إليه ومرشدا إلى الصراط المستقيم .

وتسند إلي الله بإعتبارها محققة للخير موصلة إلي الجنة ونعيمها بالفعل ، ولا يملك ذلك ولا يقدر عليه إلا الله تعالى بفضله ورحمته ، فقلوب العباد بين يديه أو أصبعيه يقلبها كيف يشاء ومتى يشاء.وليس هذا الوصف خاصاً بالقرآن الكريم لأن الكتب الإلهية كلها صاحبها ولازمها

(١) سورة الكهف ١٧ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٨ - ١٨٦ .

هذا الوصف ، فالقرآن هدى للمتقين والتوراة هدى ونور ، والإنجيل هدى ونور ومصدق لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ، كما جاء فى سورة المائدة [1].

و«المتقون» جمع ، مفرده متقى ، وهو اسم فاعل من : اتقى ، وأصله: أو تقى ، على وزن افتعل ، قلبت الواو تاء وأدغمت التاء في التاء يقال: اتقى فلان الشئ : إذا تحاشى شره وصان نفسه من أذاه وضرره، ففي المادة معنى : الوقاية والصيانة والحذر والتحرز .

وفي الشرع : امتثال ما جاء به الإسلام ، ويكون بفعل المأمورات واجتناب المنبهات .

وللتقوى مراتب : أولها : اجتناب الشرك والكفر ، وثانيها : اجتناب المعاصى والسيئات ، وثالثها : اجتناب الشبهات وترك ما لا بأس به حذراً لما به بأس ، وقد قال ﷺ :«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» [2].

ووردت آثار عن بعض سلفنا الصالح رحمهم الله تفيد وجوب التحلي بالتقوى وتبين مدى ضرورتها وأهميتها,منها قول سهل بن عبد الله : لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسوله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه، ومن أراد أن تصلح له التقوى فليترك الذنوب .

---

(١) سورة المائدة ٤٤ - ٤٦ .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب البيوع باب المشتبهات جـ٣ صـ٧٠ ، وسنن الترمذى أبواب صفة القيامة ، باب ٢٢ جـ٤ صـ٧٧ ، وصححه الترمذى ، ومسند أحمد جـ٣ صـ١٥٣ ، والحديث مروى عن أنس بن مالك والحسن بن على رضى الله عنهم .

وقول طلق بن حبيب : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله .

وقول أبي الحسن الزنجاني : من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه .

وقول بعضهم : التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك [1].

إلي غير ذلك من الأقوال الكثيرة المتقاربة المعنى .

والكتاب - القرآن - هدى للمتقين وغيرهم ، إنه هدى للناس لكن المتقين خصوا بالذكر لتفضيلهم على من سواهم ، وتشريفهم ، وتباهى الله بهم ، لأنهم المستفيدون منه المنتفعون بهديه المستضيئون بأنواره ، العاملون بأحكامه ومضاميته ، فكانوا أهلا لذكرهم ، واختصاصه بهم كأن غيرهم ممن خالفهم لا وجود له ، قال تعالى : يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين،قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هوخير مما يجمعون» [2]، «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً» [3]،«قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى» [4].

(١) انظر التفسير الكبير للرازى جـ٢ صـ٢١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبى صـ١٤٠ .
(٢) سورة يونس عليه السلام ٥٧ - ٥٨ .
(٣) سورة الإسراء ٨٢ .
(٤) سورة فصلت ٤٤ .

ويصح أن يراد بالمتقين : الناس الذين تحولوا إلى الهداية بعد الكفر وصاروا متقين بها ، وهذا كقولك : هديت مهتدياً ، أى هديت إنساناً عاصياً فصار مهتدياً بهذه الهداية ، وكقول الرسول ﷺ «من قتل قتيلاً فله سلبه»[1]، أى من قتل إنساناً حياً فصار قتيلاً ..

فالمتقون المؤمنون يزدادون هداية بتطبيق القرآن والعمل به ،وبعض الناس يهديهم الله ويتحولون إلى الإيمان الصادق ببركة هداية القرآن الكريم، قال تعالي : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .. »[2]، «وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون.. »[3]، «والذين اهتدوا هدى وآتاهم تقواهم »[4].

والتقوى جماع الخير كله ، وملاك البر جميعه ، وهى وصية الله للأولين والآخرين ، وتكرر ذكر مادتها في القرآن الحكيم ، والآيات الدالة على ذلك كثيرة موفورة .

---

(١) انظر سنن الترمذى أبواب السير باب ما جاء فيمن قتل قتيلاً فله سلبه جـ٣ صـ٦١ - ٦٢ ، وسنن أبى داود كتاب الجهاد باب في السلب يعطى للقاتل جـ٣ صـ٧٠ ، ومسند أحمد جـ٣ صـ١١٤ - ١٢٣ - ١٩٠ - ٢٧٩ و جـ٥ صـ١٢ . وهو مروى عن أبي قتادة وأنس بن مالك وسمرة بن جندب رضى الله عنهم .

(٢) سورة الأنفال ٢ .

(٣) سورة التوبة ١٢٤ .

(٤) سورة محمد ﷺ ١٧ .

ومن لا يتقى الله يستحق عقابه ، ويستأهل عذابه ، والعقاب الإلهى الواجب اتقاؤه نوعان : دنيوى وأخروى ، وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهى أمران : مخالفة دين الله وشرعه ، ومخالفة سننه فى نظام خلقه وكونه.

فعقاب الدنيا يتقي بالعلم والمعرفة بسنن الله في كونه والأخذ فى الأسباب الصحيحة بجد ونشاط

وعقاب الآخرة يتقي بالتوحيد الخالص ، والإيمان الصادق الكامل ، والعمل الصالح .

ونلاحظ أن النص القرآنى السابق يتكون من أربع جمل :

الأولى : وهى «الم» على أنها جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها .

والثانية : «ذلك الكتاب» ، والثالثة : «لا ريب فيه » ، والرابعة : « هدى للمتقين» .

وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، وهى متناسقة من غير حرف نسق ، متآخية يأخذ بعضها بعنق بعض ، والثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جراً إلي الثالثة والرابعة :

فالأولى : نبهت إلى أنه الكلام العجب المتحدى به .

والثانية : أشارت إلى أنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكانت تقريراً لجهة التحدى ، وشدًّا من أعضاده .

والثالثة : نفت أن يتشبث به طرق من الريب أو غيم من الشك، فكانت شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل من الحق واليقين » ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة .

والرابعة : قررت أنه يقين لا يحوم الشك حوله ، وحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومع هذا الترتيب الأنيق ، والنسق الدقيق ، لم تخل كل واحدة من الجمل الأربع من نكتة ذات جزالة وفخامة .

ففي الجملة الأولى : حذف ورمز إلي الغرض بألطف وجه وأرشقه .

وفى الثانية : تعريف فيه من الفخامة ما فيه .

وفي الثالثة : تقديم للريب علي الظرف ، وهو يفيد انتفاء كافة ألوان الريب عن القرآن .

وفى الرابعة : حذف المبتدأ وإيجاز بليغ وتنكير ووصف بالمصدر .

فهى أربع جمل متناسقة ، تقرر اللاحقة منها السابقة ، وكل جملة تستدعى أختها ، وتعانق ما بعدها ، وترتبط بها أرتباطاً وثيقاً (١).

فالقرآن الكريم يتكون من الحروف الهجائية العربية التى يكوّن العرب منها كلامهم ، لكن الفارق شاسع والبون واسع بين كلام البشر وكلام خالق القوى والقدر، فهو الكتاب البالغ فى البلاغة الغاية ، وفى الفصاحة

(١) انظر الكشاف للزمخشرى جـ١ صـ٢١ ، وأنوار التنزيل للبيضاوى جـ١ صـ١٣ .

النهاية ، وهو الحكيم المعجز الكامل من كافة النواحى ، النازل من لدن حكيم خبير ، الخالى من أدنى أرتياب ، ولا يصح لعاقل أن يصفه بما ليس فيه ، أو بما هو منه برئ ، وهو كتاب نافع يافع ، مثمر مغدق ، يدل على سبل الخير ، ويرشد إلى مناحى البر ، وإلى الطريق المستقيم ، ويستضئ بأنواره ويمشى على نبراسه من يكون تقياً نقياً فاعلاً للمأمورات مجتنباً للمنهيات موقناً بقدر ذلك الكتاب ، المنزل من العليم الوهاب .

«الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون» «أولئك علي هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والمناسبة بين هذه الآيات وبين ما قبلها أن الله تعالى لما ذكر حقية القرآن وكماله وهدايته للمتقين بيّن أهم صفاتهم وهى صفات خمس : الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، والإيمان بما نزل علي رسول الله وما نزل على سائر المرسلين السابقين ، والإيمان بالآخرة إيماناً قطعياً جازماً ، ثم بين سبحانه ثمرة الالتزام بهذه الصفات وهى الهدى والاستنارة والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

و«الذين» يصح أن يكون فى محل جر صفة للمتقين ، وهى وما بعدها صفات كاشفة مبينة لحالهم وسلوكهم .

ويصح أن يكون فى محل رفع خبراً لمبتدأ محذوف أى هم الذين ،

ويصح أن يكون مبتدأ وخبره جملة «أولئك علي هدى ..» ويكون الكلام استئنافاً بيانياً وجواباً لسؤال مقدر نشأ من الكلام السابق .

ويصح أن يعرب فى محل نصب مفعولاً به لفعل مقدر.

ويؤمنون مشتق من الإيمان ، وهو علي وزن الإفعال من الأمن ، وهذه المادة تتعدى بالياء وباللام .

ومعنى الإيمان لغة : التصديق والإذعان ، وشرعاً : التصديق بكل ما علم بالضرورة أنه من الدين وجاء به النبى ﷺ إجمالاً فيما علم إجمالاً ، وتفصيلاً فيما علم تفصيلاً .

وأركانه ستة وهى : الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام [١].

وجاء الفعل مضارعاً للدلالة علي تجدد الإيمان وحدوثه واستمراره ، وللأئمة العلماء ، كلام كثير النقول طويل الذيول في مسائل تتعلق بالإيمان.

وهو مدون في كتب العقائد ، فليرجع إليها من يريد إرواء غلته .

و«الغيب » : مصدر غاب يغيب ، وهو هنا مصدر بمعنى اسم الفاعل، ومعنى الغيب : كل ما خفى واستتر ولا تدركه الحواس .

---

(١) انظر الحديث في صحح البخارى كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبى عليهما السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان .. جـ١ صـ٢٠ ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب الإيمان ما هو وبيان خصاله جـ١ صـ١٣٣ ، وما بعدها ، وروى فى كتب السنة الأخرى ، وهو مروى عن عمر وأبى هريرة وغيرهما رضى الله عنهم .

وفي الشرع : كل ما أخبر به الرسول ﷺ واستتر ولا تدركه الحواس ولا تهتدى العقول إلي كنهه وحقيقته فى عالم الشهادة كعذاب القبر ، والصراط ، والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، ونحو ذلك من الأمور المغيبة السمعية ، والمغيبات أكثر من المشاهدات وأهيب .

ومعنى الجملة الكريمة : أن المتقين يقرون ويصدقون بكل ما غاب عن حواسهم .

وذكر الإيمان بالغيب وقدم علي غيره من الصفات لأنه عمل قلبى واعتقاد صدرى وأصل وأساس لغيره ، واستمراره من العبد مطلوب ، فمن آمن بالغيب سهل عليه إدراك الأدلة وقبولها والارتياح لما جاء به رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، ويكون إيمانه بالغيب إيماناً جازماً عن دليل ، وليس إيماناً ضعيفاً متهافتاً ، ولا إيماناً تقليدياً شكلياً .

وإيمان المتقين بالغيب دليل على نقاء فطرهم ، وطهارة صدورهم وسلامة قلوبهم ونفوسهم واتساع عقولهم ومداركهم ، واستسلامها لما جاء به الدين ، وقد رويت أحاديث كثيرة تتضمن الثناء عليهم لإيمانهم بالغيب منها :

ما جاء عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال: قلت لابن جمعة : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال : نعم أحدثك حديثاً ، تغوينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - فقال : يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك ، وجاهدنا معك ؛ قال نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يروني .

قال الحافظ ابن كثير معلقاً : فقد مدحهم علي ذلك ، وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً .

وروى ابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده وأبو نعيم بأسانيدهم عن بديلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة واستقبلنا مسجد إيلياء ، فصلينا سجدتين ، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت ، فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء مكان الرجال ، فصلينا السجدتين الباقيتين ، ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : أولئك قوم آمنوا بالغيب [١].

.. إلى غير ذلك من الروايات الدالة على أهمية الإيمان بالغيب وضرورته وحتميته والثناء علي أهله وأصحابه .

«ويقيمون الصلاة »

وهذه هى الصفة الثانية التى يتصف بها المتقون ، والجملة معطوفة على الجملة السابقة ، والعطف يقتضى المغايرة ويدل على أن الأعمال الصالحة ليست من حقيقة الإيمان ، ولا ركناً من أركانه ، ولا شرطاً في وجوده وتحققه ، وإنما هى أمارات على صدقه وتمكنه في القلب ، ويزيد الإيمان بزيادتها ، وينقص بنقصانها ، وفى المسأله خلاف بين العلماء يرجع إليه في كتب العقائد المطولة .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ صـ٤١ - ٤٢ .

ومعنى : «يقيمون الصلاة » : يعدلون أركانها وواجباتها وسننها وآدابها فى خشوع وخضوع ، أى يؤدونها كاملة مستوفاة ، مأخوذ من قولهم : أقام العود : إذا جعله مستقيماً خالياً من العوج .

أو معناها : يواظبون على أدائها فى أوقاتها، ويداومون عليها

من قولهم: قام الحق، وأقام الحق : إذا ظهر وثبت ودام .

أومعناها: يؤدون الصلاة بجد ونشاط وهمة وعزيمة قوية، ولا يعتريهم كسل، من قولهم: قام فلان بالأمر، وأقامه: إذا جد فيه ونشط واضطلع به وتجلد .

وهذه المعانى مطلوبة كلها فى أداء الصلاة،ولا منافاة بينها إذ المطلوب أداؤها أداء كاملاً وليس أداء شكليا، قال عمر رضى الله عنه: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع .

و(الصلاة) على وزن فَعَلَة، يقال: صلى: إذا حرك الصَّلوين أى الإليتين، وقيل: مأخوذ من: صَلَيْت العود بالنار: إذا قومته ولينته، وقيل فى مأخذها غير ذلك .

وتطلق الصلاة فى اللغة على: الدعاء، ومنه قوله تعالى: .... وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم»[1] ، والرحمة ومنه قولنا : اللهم صل على محمد وآله، والعبادة ومنه قوله تعالى: وما كان صلاتهم عند البيت إلا

---

(١) سورة التوبة ١٠٣ .

مكاء وتصدبة»[1]، والقراءة ومنه قوله تعالى: «ولاتجهر بصلاتك ولا تخافت بها» [2].

وفى الشرع: أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ذات هيئة خاصة بنية .

والصلاة الشرعية لاتخلو من تحريك الإليتين ومن الدعاء والرحمة والعبادة والقراءة، فيبين المعنى اللغوى والشرعى تناسب ظاهر .

وقدمت إقامة الصلاة على الإنفاق فى وجوه الخير لأن الصلاة فرضت قبل الزكاة، ولأنها أول أركان الإسلام العملية، وصلة بين العبد وربه، ومعراجه إليه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وتتكرر فرائضها خمس مرات فى اليوم والليلة، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وفرق مابين المسلمين وغيرهم ترك الصلاة، والصلاة ملاذ العبد وملجؤه، ومعراجه إلى ربه، وصمام أمنه وأمانه إذا حزبه أمر، كما كان حال رسول الله ﷺ وحال السلف الصالح من بعده، وهى تهذب الروح، وترقق الوجدان والشعور، وترهف الإحساس، وتطهر النفس من أدران الذنوب وأوضار الآثام، ويتمتع الإنسان المؤمن بإقامتها وطولها وتكررها ويحس بحلاوتها وحلاوة الإيمان فى قلبه،فتقر عينه، وتهنأ نفسه، وينشرح صدره، ويتحسن سمته، وهى رياضة بدنية ونفسية، وتربى الأمة على طهارة الباطن والظاهر،

---

(١) سورة الأنفال ٣٥ .

(٢) سورة الإسراء ١١٠ .

واحترام النظام والمواعيد والطاعة والمحبة والأخوة والمساواة والتواضع والانضباط.... وغير ذلك من الثمار الطيبة المطلوبة لاستقامة الحياة واستقرارها وسنائها وهنائها، ورضا الله تعالى .

« ومما رزقناهم ينفقون » :

وهذه هى الصفة الثالثة من صفات المتقين، والجملة معطوفة على جملة يؤمنون بالغيب» .

و «من» فى قوله «مما» للتبعيض لأن الله لايسأل الناس إنفاق جميع أموالهم، وإنما يسألهم إنفاق بعضها فى الحدود والوجوه التى بينها الشرع الحنيف، قال تعالى: وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم»[1].

والرزق مصدر يقال: رزق يرزق رزقا، بفتح الراء وهو: إعطاء ما ينتفع به العبد، ويستفيد، وبكسر الراء: اسم لما يُرْزَقُه، وجمعه: أرزاق، ومعناه بلغة أزد شنوءة: الشكر، ومنه قوله تعالى: وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»[2] أى شكركم .

وهو عند جمهور العلماء: كل ما يصلح لانتفاع الإنسان به سواء أكان حلالا أم حراما من المأكولات والمشروبات والملبوسات وغيرها .

---

(١) سورة محمد ﷺ ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة الواقعة ٨٢ .

ويرى المعتزلة: أن الحرام ليس برزق لأنه غير مملوك للعبد ولايتصرف فيه، ولأن الحرام قبيح لا تصح نسبته إلى الله تعالى .

والجواب: أن الكل من الله وإلى الله، وصفات الله أزلية كاملة، ووصْف عمل العبد بالقبيح راجع إلى مباشرته وسوء اختياره، ومما يدل على عموم الرزق وشموله للحلال والحرام قوله تعالى: « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلا لا... » [1] .

ومارواه ابن ماجه وأبو نعيم والديلمى بأسانيدهم إلى صفوان بن أمية قال: جاء عمرو بن مرة فقال: يارسول الله، إن الله قد كتب عليَّ الشقوة: فلا أرانى أرزق إلا من دفى بكفى، فاذن لى فى الغناء من غير فاحشة، فقال ﷺ: لا آذن لك ولا كرامة ولانعمة عين.كذبت أى عدو الله، لقد رزقك الله تعالى رزقا حلالا طيبا فاخترت ما حرم الله تعالى عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله[2] .

والرزق يطلق على الأمور الحسية والمعنوية كالفهم والعلم ونحوهما .

ولا تستقيم الحياة ولاتستقر إلا بالتفاوت فى الأرزاق ووجود الأغنياء والفقراء، فوجود الفريقين بمثابة الموجب والسالب، ولو كان الناس جميعهم أغنياء وبسط الله لهم الرزق لبغوا فى الأرض وساءت الحياة وفسدت وتعطلت الزكوات والصدقات، إذ لا يوجد من يأخذها ويستحقها.

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٥٩ .

(٢) انظر الحديث بطوله فى سنن ابن ماجه كتاب الحدود باب المخنثين صـ٨٧١ .

ولو كان الناس جميعهم فقراء لتخلخلت الحياة وانحدرت وعم الجهل وانتشر المرض وتعطلت الزكوات والصدقات إذ لا يوجد من يعطيها، لكن التفاوت فى الرزق جعل فى الحياة أغنياء وفقراء بنسب مختلفة، وجعل الحياة متوازنة مستقيمة مستقرة وخدم الناس بعضهم بعضا، قال تعالى: ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير»[1] .وقال: «أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً» [2]، وقال: « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن»[3].

وقال أحد الشعراء :

الناس للناس من بدو ومن حضر .·. بعضهم لبعض وإن لم يشعروا خدم

والرزق نوعان: مبرم ومعلق: فالمبرم: هوالذى يأتى صاحبه حتما ويطلبه كما يطلبه الموت .

والمعلق: هو الزائد على المبرم والذى علق مجيئه لصاحبه على طاعة يفعلها أو معصية يتركها[4].

---

(١) سورة الشورى ٢٧ .

(٢) سورة الزخرف ٣٢ .

(٣) سورة المؤمنون ٧١ .

(٤) تكلمت عن ذلك بشىء من البسط والتفصيل فى كتابى : يانع الثمرات في تفسير سورة الذاريات ص١٠٨ .

و«ينفقون» مشتق من الإنفاق وهو: إخراج المال وبذله .

يقال: نفق ينفق من باب فرح ونصر أى نفدوفنى، ويقال: أنفق ينفق ماله: إذا أخرجه وأنفده.

ومعنى الجملة الكريمة: أن المتقين يحسنون إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين، وأيديهم سخية فى وجوه الخير وسبل البر، ويعطون مما أعطاهم الله من فضله، ولا يبخلون على خلقه .

وقدم الجار والمجرور فى الجملة لمراعاة فواصل الآيات وخواتيمها.وجاء الفاعل فى «رزقناهم» ضمير جمع للدلالة على التعظيم والتفخيم وأن الرزق بيد الله وحده، ولأن بعض الملائكة يباشرون أسباب الرزق ويهيئونه للمخلوقات .

وجاء الفعل مضارعا للدلالة على تجدد الإنفاق منهم وتكرره من حين لآخر وفى كل فرصة تتاح لهم .

واختلف العلماء فى المراد بالإنفاق هنا:

فيرى بعضهم أن المراد به إخراج الزكاة المفروضة بدليل قرنه بالصلاة، ويرى بعضهم أن المراد به صدقة التطوع .

ويرى بعضهم كابن جرير الطبرى عموم الجملة وأن المراد به الزكاة المفروضة وسائر الصدقات والإنفاق على الأهل والعيال، وهذا المعنى هو الظاهر لأن من يؤدى النوافل والمستحبات يكونً مؤدياً للفرائض والواجبات

من باب أولى، ولأن المقام مقام ثناء على المتقين ومدح لهم ولذا لم يذكر متعلق الفعل «ينفقون» .

وقد حث الإسلام على الإنفاق فى سبيل الخير ووجوه البر من مال طيب حلال دون مخيلة أو إسراف وتبذير، وشح وتقتير، فإن المال عصب الحياة ووقودها، وروحها وعماؤها، وفى بذل المال فى سبيل الخير تعاون إنسانى، وتكامل اجتماعى، يثمر رضا الله، والمودة والمحبة بين الناس، ويعود النفع على الفرد والمجتمع، ويزيل الأحقاد والضغائن، ويصير الفقراء حراسا على مال الأغنياء.

ومدح الإسلام أهل السخاء والبر والمعروف والخير قال تعالى: «ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا»[1]، وقال: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» [2]،وقال:«وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين»[3]، وقال: «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم»[4].... وغير ذلك من الآيات البينات، والسنة المطهرة مشحونة ومترعة بالأحاديث الصحيحة الدالة على المعانى السابقة.

---

(١) سورة الإسراء ٢٩ .
(٢) سورة الفرقان ٦٧ .
(٣) سورة آل عمران ١١٥ .
(٤) سورة البقرة ٢٦١ .

« والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك »:وهذه هى الصفة الرابعة للمتقين، وهى إيمانهم بنزول القرآن الكريم على الرسول محمد ﷺ وإيمانهم بجميع ما أوحي الله به إليه،وإيمانهم بجميع الكتب والصحف الإلهية السابقة النازلة على الرسل السابقين عليهم السلام كصحف إبراهيم وتوراة موسى وصحفه،والزبور النازل على داود،والإنجيل النازل على عيس ابن مريم عليهم السلام .

ولايصلح التفريق بين أحد من رسل الله فى الإيمان، ولا التفريق بين كتبه، فهى كلها كتب نزلت من عند الله وتتضمن الهداية والإرشاد، والقرآن العظيم خاتمها ومهيمن عليها ومصدق لما بين يديه منها، ولا تعرف عدد كتب الله ولا عدد رسله وأنبيائه فنحن نؤمن بمن قصهم الله علينا فى القرآن وبمن لم يقصص علينا .

ولايكفى مجرد الإيمان بالقرآن بل لابد أن ينضم إلى الإيمان به تطبيق ماجاء فيه من أحكام وتشريعات والعمل بها، وجاءت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر بالإيمان برسل الله وكتبه، وتنهى عن التفريق بينهم فى الإيمان وتبين جزاء من آمنوا بهم، وجزاء من فرقوا بينهم كقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »[1]، وقوله جل شأنه: «إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعضهم ونكفر

(١) سورة النساء ١٣٦ .

ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ...»[1]، وقوله تعالى جده: «قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[2]، وغير ذلك من الآيات الكريمات .

وجاء الفعل الماضي فى جانب القرآن «أنزل إليك» مع أن القرآن لم يكن تم نزوله وقتئذ تغليبا لما نزل على ما لم ينزل، ولأن تمام نزوله لما كان متيقنا متحقق الوقوع صار كالواقع بالفعل.

وقدم الإيمان بما أنزل على الرسول على الإيمان بما أنزل على من قبله من الرسل تشريفا لرسول الله محمد وتكريما له ولمعجزته الكبرى الدائمة الباهرة، ولبيان أن الإيمان بالرسل السابقين لايغنى عن الإيمان برسول الله محمد ﷺ، فلا بد من الإيمان بهم جميعا من أولهم إلي آخرهم، ولذا لم يتكرر الفعل - يؤمنون- فى الآية .

والمخاطب فى الآية الشريفة هو رسول الله محمد ﷺ .

ويري بعض العلماء أن المراد باسم الموصول فى الآية - الذين - أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتب الإلهية السابقة وعاشوا إلى أن عاصروا نزول

---

(١) سورة النساء ١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) سورة البقرة ١٣٦ .

القرآن الكريم وآمنوا برسول الله وبالقرآن وصار لهم أجران كعبد الله بن سلام وغيره من اليهود والنصارى، قال تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلي عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدوءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون»(١).

وروى الشيخان وغيرهما بأسانيدهم إلى أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى،ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها (٢).

ولاتنافى بين المعنيين فالآية الكريمة تشملهما بعمومها.

«وبالآخرة هم يوقنون»:

وهذه هى الصفة الخامسة للمتقين، وهى الإيمان بالدار الآخرة وبكل ما فيها إيمانا جازما يصل إلى اليقين بها .

(١) سورة القصص ، ٥٢ - ٥٤ .

(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله جـ١ صـ٣٥ وكتاب النكاح باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها جـ٧ صـ٧ ورواه فى كتاب العتق وكتاب الجهاد،وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته جـ١ صـ٣٦٨ ورواه فى كتاب الإيمان,وسنن الدارمى كتاب النكاح باب فضل من أعتق أمته ثم تزوجها جـ٢ صـ١٥٥ وسنن ابن ماجه فى نفس الموطن صـ٦٢٩,ومسند أحمد جـ٣ صـ٣٦/ ٢٥٢/ ٣٩٠/ ٤٤٨/ ٤٥٣/ وغيرها وهو مروى عن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه.

و«الآخرة» تأنيث الآخر، وهو صفة لموصوف مقدر، وهذا الموصوف يقدر أحياناً كما هنا، وكما في قوله تعالي: وللآخرة خير لك من الأولي»[1] ، ويصرح به أحيانا كما في قوله تعالى: وإن الدار الآخرة لهى الحيوان[2].

والآخرة يقابلها الأولي ، والمراد بالأولى: الدنيا، وبالآخرة: الدار الآخرة، وسميت بذلك لأنها تأتى عقب الدنيا، أوعقب الأولي .

وقدم الظرف - الجار والمجرور - لإفادة الحصر ولمراعاه فواصل الايات وخواتيمها، واتحاد الفاصلة محسن من محسنات علم البديع .

و«يوقنون» مشتق من الإيقان وهو: الاعتقاد الجازم المطابق للحق والواقع الخالى من أدنى شك واشتباه.

وذكر الفعل المضارع فى هذه الجملة وفى غيرها من الجمل السابقة للدلالة على تجدد المعاني المذكورة واستمرارها، ولأن كل زمان لايخلو من المتقين المتحلين بتلك الصفات السامية.

وذكر الضمير - هم - فى هذه الجملة ولم يذكر فى جملة «ومما رزقناهم ينفقون» تعريضا بغيرهم ممن ينكر الآخرة ويجحدها أو يؤمن بها إيمانا لايصل إلى اليقين .

---

(١)سورة الضحي ٤ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٤ .

ولأن وصف إيقانهم بالآخرة لما كان أعلي من وصفهم بالإنفاق احتاج إلي التأكيد، ولأن ذكره فى الجملة المذكورة لايؤدى إلى قلق لفظي وتكرار، ولو ذكر فى جملة الإنفاق لأدى إلي قلق لفظى وتكرار إذ يصير التركيب هكذا« ومما رزقناهم هم ينفقون» وفيه ثقل وقلق وتكرار[1].

والإيمان الجازم بحقية الدار الآخرة ودوامها وما فيها من حشر وحساب وصراط وثواب وعقاب يدفع الإنسان إلي فعل الخيرات واجتناب السيآت، وكلماهم بفعل سيئة تذكر وقوفه بين يدى الله ومحاسبته إياه، فيقلع عن المعصية وينزجر عنها، وإذا ما ألم بذنب وخزه ضميره ولامته نفسه وتاب إلي الله وأناب، واستغفر الرحيم الغفور التواب، وفى الأخرة إبراز وإظهار لعدل الله وفضله على مشهد من الخلائق وإعطاء كل ذي حق حقه من ثواب أو عقاب فضلا وعدلا.

نسأل الله السلامة،والنجاة يوم القيامة .

ونلاحظ فى الآيتين أن أول الصفات إيمان قلبي بالغيب، وأن آخرها إيقان قلبى بالأخرة ومافيها، فتناسب بدء الصفات بختمها ومطلعهابمقطعها وهومحسن بديعي ولون بلاغى .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» :

وهذه الآية الكريمة مستأنفة على الوجه الراجح من أوجه الإعراب

---

(١) انظر البحر المحيط لأبى حيان جـ١ صـ٤٢ .

السابقة، وهي تبين ثمرة اهتداء المتقين بالقرآن واستمساكهم بالصفات السابقة السامية والتزامهم بها .

و«المفلحون» اسم فاعل من أفلح، والفلاح هو: الفوز والظفر بدرك البغية والمطلوب، وهومن: الفلح بإسكان اللام أى الشق والقطع، ومنه: فلاحة الأرض أي شقها وإثارتها للحرث والزرع، ويقال للزارع: فلاح لأنه يشق الأرض ويعدها للزراعة، واستعملت الكلمة في الفوز بالمطلوب والظفر بالمرغوب كأن الفائز شق طريقه أو انشقت له الطريق للوصول إلى مراده.

وجاء اسم الإشارة الموضوع فى اللغة ليشار به إلي البعيد لتكريم هؤلاء المتقين المذكور أهم صفاتهم، وبيان ارتفاع منزلتهم، وعلو مكانتهم، وبعدهم فى القدر والرتبة، ولترغيب غيرهم فى الاتصاف بما اتصفوا به .

ونكرت كلمة «هدى» لتعظيم وتفخيم الهدى الذى هم عليه ومستمسكون ومنتفعون به، وزاد المعنى فخامة وتعظيما أن الهدى من ربهم، فهو المتفضل عليهم به، والمزكى لهم، والموبي والآخذ بأيديهم ونواصيهم إلى الكمال، والمهيء لهم الأسباب، والمعين لهم على الالتزام والاستقامة، والقابل لأعمالهم الصالحة، والمثيب عليها.

وفي جملة «أولئك على هدى من ربهم» استعارة تمثيلية أى مثلت حال المتقين وتمسكهم بالهدى واستقامتهم عليه وانتفاعهم به بحال من استعلى على شيء وتمكن منه واستقر عليه بجامع التمكن والانتفاع والتصرف فى كل .

أو ان الكلام من قبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الحرف «على» .

وتكرر اسم الإشارة مقرونا بواو العطف لزيادة التفخيم والتكريم، وبيان أنهما جملتان مستقلتان، وثمرتان مختلفتان: الأولى تثبت اختصاصهم بالهدى، والثانية تثبت اختصاصهم بالفلاح .

وتعريف الطوفين وذكر الضمير في قوله «أولئك هم المفلحون» يفيد الحصر المؤكد أي أن الفلاح محصور في هؤلاء المتقين ومقصور عليهم .

وذكر حرف العطف هنا ولم يذكر في قوله تعالى في سورة الأعراف: «أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» [1] ، لتغاير الموضوعين والمعنيين .

فالآية التي معنا تتحدث عن المتقين وتبين اختصاصهم بالهدى واختصاصهم بالفلاح في الدنيا والأخرة، وأنهما جملتان مستقلتان وثمرتان متنوعتان، ومن ثم ذكر فيها حرف العطف - الواو - .

أما التي في سورة الأعراف فهي تتحدث عن الكافرين المعرضين عن الحق.وتشبههم الجملة الأولى بالبهائم بل هم دونها ، وتسسجل عليهم الجملة الثانية الغفلة، ولما كانت الجملة الثانية مقررة ومؤكدة لمعنى الجملة الأولى صارت الجملتان كالجملة الواحدة ومن العطف بمعزل .

---

(١) سورة الأعراف ١٧٩ .

قال الإمام الزمخشرى: .... فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين نيْل ما لايناله أحد علي طرق شتي وهي:

ذكر اسم الإشارة، وتكريره، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين «أولئك» : ليبصرك مراتبهم، ويرغبك فى طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، والتمنى على الله مالا تقتضيه حكمته، ولم تسبق به كلمته اهـ [1].

فالآية الكريمة الحكيمة تبين أن المتقين الذين اهتدوا بالقرآن العظيم، وطبقوه واتصفوا بالصفات السابقة، الحميدة المجيدة الباسقة، واستمسكوا بها على هدى ونور وبصيرة واستقامة من ربهم، وأنهم هم الناجون من المرهوب، الفائزون بالمرغوب، الظافرون بالمطلوب السعداء فى الدنيا والآخرة، وهى شهادة من الله لهم برضاه عنهم، وإعزازه لهم .

والآية الكريمة تعرض بغيرهم ممن ليسوا مثلهم، وتدعوهم إلى التزام ما التزموا، وسلوك ماسلكوا .

نسأل الله أن نكون من المتقين المهتدين والمفلحين .

---

(١) انظر الكشاف للإمام الزمخشري جـ١ صـ٢٥ .

تعنت الكافرين وجزاؤهم

قال الله تعالى :

﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ⑥ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ⑦

والمناسبة بين الآيتين الكريمتين وبين ما قبلهما أن الله لما بين اهتداء المتقين بالقرآن المبين واتصافهم بأمهات الصفات الطيبة فى العقيدة والسلوك وحسن جزائهم قفى بذكر فريق من الناس معاند للحق متصلب للباطل وهم المتعنتون من الكفار .

فالعلاقة بين الآيات هي الضدية، وبضدها تتميز الأشياء- وهو مسلك قرآني معروف .

والآية الكريمة - وما بعدها - مستأنفة، ولم تعطف علي ما قبلها للتباين بينهما فى الغرض والأسلوب، لأن الكلام السابق يتحدث عن عظمة القرآن وجلاله وصفات المتقين وجزائهم الطيب الأوفى .

أما هذه الآية ومابعدها فهما تتحدثان عن الكافرين الثابتين على الكفر المستمرين عليه إلى الموت وعن حالهم وسوء مآلهم .

والكفر بفتح الكاف: ستر الشيء وتغطيته، وسمى الليل كافرا لأنه يستر ويغطى كل شيء بظلمته، وسمى السحاب كافرا لأنه يستر ضوء الشمس ويحجبه، وسمي الزارع كافرا كما جاء فى قوله تعالى فى شأن

الحياة الدنيا: «... كمثل غيث أعجب الكفار نباته»[1] أى الزراع لأن الزارع يستر البذور في الأرض ويغطيها .

ويطلق الكفر بضم الكاف على ستر النعمة لأن المنعَم عليه إذا جحدها وتنكر لها فإنه يكون سترها وغطاها .

وهو بضم الكاف: ضد الإيمان، ويطلق في الشرع على :

إنكار شيء معلوم من الدين بالضرورة جاء به الرسول ﷺ لأن من ينكر شيئا معلوما يجب الإيمان به يكون قد ستره وغطاء.

والمقصود بالكافرين فى الآية: طائفة معينة من الناس علم الله أنهم يحبون كفارا ويموتون كفارا ولن يؤمنوا مهما جاءتهم الآيات البينات من أمثال أبى جهل وأبى لهب والوليد بن المغيرة وأبى بن خلف وغيرهم ممن ماتوا على الكفر .

وقبل إن المراد بالطائفة المذكورة صفاتهم: طائفة من أهل الكتاب كحيى بن أخطب وكعب بن الأشرف وغيرهما ممن ماتوا على الكفر.

والأولى أن تكون الآية عامة فى الطائفة الموصوفة بما ذكر ولايخلو زمان منها ،

ولايصح أن يكون المراد بالذين كفروا: عموم الكفار فى كل زمان ومكان لأن بعض الكفار كعكرمة بن أبى جهل وخالد بن الوليد وعبد الله

(١) سورة الحديد ٢٠ .

ابن سلام وغيرهم اعتنقوا الإسلام في حياة الرسول ﷺ، وكثير منهم اعتنقه بعد وفاته، ولاتزال هداية الله لبعضهم إلي اعتناقه مستمرة إلي وقتنا الحاضر، وستظل إلى آخر الزمان.

وفي ذكر الكافرين باسم الموصول «الذين» زيادة تشنيع عليهم وتقبيح لهم لأن جملة الصلة تفيد اجتهادهم في ستر الحق وإخفائه وتأييدهم للباطل .

و«سواء» اسم مصدر يوصف به كما يوصف بالمصدر وهو بمعنى اسم الفاعل أي مستوى ، ومنه قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم .. »[1]، وقوله سبحانه : «ليسوا سواء»[2].

و«سواء» خبر إن ، وجملة «أأنذرتهم.. » مؤولة بمصدر يقع فاعلاً لسواء ، لأن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل ، وتقدير الكلام : إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارهم وعدمه ، ويصح أن تكون كلمة «سواء» خبراً مقدماً وجملة «أأنذرتهم .. » مبتدأ مؤخراً ، والجملة في محل رفع خبر إن .

ولم تذكر الواو هنا مع كلمة «سواء» وذكرت في سورة يس في قوله تعالى : وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون»[3]: لأن ما في سورة البقرة جملة تقع خبراً لإن ، وما في سورة يس جملة معطوفة بالواو على الجملة السابقة .

---

(١) (٢) سورة آل عمران ٦٤ - ١١٣

(٣) سورة يس ١

والإنذار : إخبار يصحبه تخويف وتهديد للمنذَر مع إعطائه مدة تتسع لأخذ الحيطة والتحفظ من المخوف والمنذر به ، فإن لم تتسع المدة للتحفظ والتحرز فهو إعلام وإشعار وليس بإنذار .

ولم يجد الإنذار مع هؤلاء الكفرة الفجرة مع أن حجج الإسلام قوية قاطعة.وبراهينه ساطعة ناصعة لأن قلوبهم قست وتحجرت وأبصارهم وبصائرهم عميت عن النظر في آيات الله والاعتبار بها .

وآذانهم صمت عن الاستماع لنداء الحق ، وصاروا كالأنعام بل أضل وإنذارهم لا يجدى ولا يثمر .

ولم يذكر التبشير فى الآية مع أن الرسول ﷺ بشير ونذير لأن الكلام هنا عن الكفرة وسوء حالهم ووخامة عاقبتهم فليسوا أهلا للبشارة ، والمقام مقام تخويف وتهديد وترهيب ووعيد .

ولم يقل الله «سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم» لأن الأمرين بالنسبة إلى الرسول ﷺ ليسا سواء ، فهو حريص على هدايتهم مثاب ومأجور على تبليغهم الدعوة وإنذارهم ، وفى حالة عدم إنذاره لهم يكون مؤاخذاً لأنه مأمور بتبليغ ما أوحى الله به إليه ، قال تعالى : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته» [1].

والهمزة وأم مجردتان عن معنى الاستفهام لأن المقصود هنا هو التسوية .

---

(١) سورة المائدة ٦٧ .

ولم تعطف جملة «لا يؤمنون» على ما قبلها لأنها مفسرة لما قبلها ومؤكدة لها .

ولم يذكر متعلقها مراعاة لفواصل الآيات وخواتيمها ولإفادة العموم والشمول و لإتاحة مجال النظر والتفكر فى القرآن الكريم .

وهذه الجملة تفيد استمرارهم علي الكفر وموتهم عليه لأن الفعل المضارع سبقته «لا » النافية ، ومعلوم أن المضارع إذا دخلت عليه «لا » النافية أفاد دوام النفى وأن الفعل لا يقع في المستقبل حتى تقوم قرينة تجعل النفي مقصورا فى المستقبل علي وقت معين ، ولا توجد قرينة تقيده بزمن هنا ، فعدم إيمانهم مستمر إلى موتهم وهلاكهم .

وفى الآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه وكفكفة لحزنه وتخفيف لآلامه ولوعته بسبب عدم إيمان بعض قومه به وصدهم عنه مع بذله قصارى جهده وكامل طاقته في دعوتهم وحرصه علي هدايتهم حتى كادت نفسه تهلك وتذهب عليهم حسرات ، والعيب فيهم لا فيه ولا فى رسالته .

وفيها عزاء وسلوى لكل داع إلى الحق مصلح مخلص يعظ الناس ويرشدهم إلى صراطه المستقيم ثم يقابله بعضهم بالإعراض والصدود والنكوص عن الدعوة ، وقد تقع عليه الإهانة وصدق الله في قوله : «إن تحرص علي هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين » [1]،

---

(١) سورة النحل ٣٧ .

وقوله : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » [1]، وقوله: «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » [2]، وغيرها من الآيات .

وكان الرسول ﷺ ينذر هؤلاء الموصوفين بما ذكر مع علمه بأن الإنذار لا يجدى ولا يفيد ليقيم الحجة عليهم ويثبت عموم رسالته ويثاب على إنذاره وتبليغ رسالة ربه .

ثم وضح الله الأسباب التى منعتهم من الإيمان وجعلتهم مستمرين على الكفر متشبثين به حتى استحقوا العذاب الأليم فقال :

« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » : فهذه الآية تعليل وسبب للحكم السابق ، وجواب سؤال مقدر ناشئ عنه .

و«ختم» مشتق من الختم ، تقول : ختمت الشئ ختماً ، فهو مختوم ومختم .

وختم الشئ : وسْمه بطابع أو نحوه وإحكام إغلاقه والاستيثاق منه بحيث لا يخرج منه ما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه .

وقد يكون محسوساً كختم الكتاب، ومعنوياً كالختم على القلوب[3].

وشاع استعمال الختم في بلوغ نهاية الشئ والوصول إلى آخره كختم القرآن .

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) سورة المائدة ٤١ .

(٣) انظر تفسير القرطبى صـ١٦٢ ، ويسمى الجامع لأحكام القرآن .

والقلوب جمع ، مفرده : القلب ، وهو المضغة الصنوبرية الموجودة في التجويف الأيسر من صدر الإنسان ، ويطلق على القوة العاقلة ذات الفهم والعلم والتمييز .

وللقلب سلطان وسيطرة علي بقية أجزاء الجسم فهو بمثابة الملك وبقية الأعضاء والجوارح كالرعية ، قال تعالى : «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» [1]، وقال الرسول ﷺ: «..ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » [2].

وسمى بهذا الأسم لأنه محل للتقلب والتغير بزيادة الإيمان ونقصه وفق مقدار الأعمال الصالحة ، وزيادة الكفر ونقصه وفق مقدار الأعمال الطالحة، ولأنه محل تقلب الخواطر فيه من حين لأخر .

والسمع مصدر سمع ، ويطلق على الآلة التى بها تسمع الأصوات .

وكرر الجار في قوله «وعلى سمعهم» للدلالة على كمال العناية بتعلق الختم بكل واحد منهما وبيان شدته واستقلال كل منهما بالحكم كأنه قال«ختم الله على قلوبهم وختم على سمعهم »

(١) سورة ق ٣٧ .

(٢) انظر الحديث بطوله في صحيح البخارى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه جـ١ صـ٢١ وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب المسافاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات جـ٤ صـ١١٠ وسنن ابن ماجه كتاب الفتن باب الوقوف عند الشبهات صـ١٣١٨ ، وسنن الدارمى كتاب البيوع باب في الحلال بين والحرام بين جـ٢ صـ٢٤٥ ، ورواه من الصحابة النعمان بن بشير رضي الله عنهم .

والأبصار جمع مفرده: البصر، ويطلق على القوة التى يقع بها الإبصار، كما يطلق على العين ذاتها.

وأثبت العلم الحديث أن حدقة العين بمثابة المرآة التى تنعكس عليها الأشياء فتظهر الأشياء وترى .

والغشاوة: الغطاء والساتر، مأخوذة من غشى فلان الشىء غشاوة: إذا غطاه وستره.

وذكرت هذه الأعضاء الثلاثة لأنها طريق العلم .

وقدمت القلوب هنا على غيرها لبيان أهميتها إذهى محل العقائد ولتناسبها مع ختم الآية السابقة بقوله «لايؤمنون» ومعلوم أن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

أما فى سورة الجاثية فقدم الله السمع على القلب فى قوله : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علي علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون»[1] لأن جملة «ختم..» معطوفة على جملة: «اتخذإلهه هواه» ومن يتخذ إلهه هواه ويضله الله على علم يكون كارها ورافضا لاستماع الأدلة والإصغاء للبراهين المثبتة للحق المثمرة فى القلب، وليست عنده مبالاة بالمواعظ فلما كان السمع طريقا موصلا إلى القلب قدم عليه فى آية الجاثية، ولذا ختمت الآية بقوله جل شأنه :«أفلا تذكرون» .

---

(١) سورة الجاثية ٢٣ .

وقدم السمع علي الأبصار لأن الإنسان بعد ولادته يسمع قبل أن يفتح عينيه ويبصر، ولأن الأذن تسمع في اليقظة والنوم وسمعها لا يتوقف، ولأنها تسمع من كل الجهات بخلاف العين فلا ترى إلا ما هو أمامها، ولأن السمع لاتحكمه إرادة الإنسان بخلاف العين، ولأن حاسة السمع أسرع الحواس في الانتباه .

والختم على قلوب الكفرة وسمعهم، والغشاوة على أبصارهم قد يكون ذلك حقيقيا بأن يخلق الله على قلوبهم وسمعهم وعلى أبصارهم بمقتضى علمه بهم وسلوكهم السيء وترديهم في الموبقات والكبائر أغلفة وحجبا وأستارا مستورة لاترى بالأعين، تحول بينهاوبين الإيمان والاستجابة للحق، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في شأن الكفرة: «وقالوا قلوبنا غلف...»[1]، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ...»[2] ،«كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»[3]، «..... وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا»[4]،

ويجوز أن يكون معنويا والكلام من باب الاستعارة بأن يشبه إيثارهم الكفر على الإيمان واستحبابهم العمي علي الهدى وغمرتهم بالكفر بالختم

(١) سورة البقرة ٨٨ .
(٢) سورة فصلت ٥ .
(٣) سورة المطففين ١٤
(٤) سورة النساء ١٥٥ .

علي ما تقدم ذكره بجامع التغطية والاستتار والانغلاق وعدم الاستفادة فى كل ، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه.واشتق منه «ختم» علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهي استعارة محسوس لمعقول .

والختم غير الطبع لأن الطبع أثر الختم وأمارته ، ولذلك ذكر الله الطبع في جانب القلوب والسمع والأبصار فى قوله فى شأن الكفرة وحالهم «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون»[1] .

وجاء الفعل - ختم - ماضيا للدلالة على تجدد فساد فطرهم وحدوثه ودنس قلوبهم وتلوث سمعهم وميلهم إلى الكفر ومصاحبتهم له وازديادهم طغيانا وكفرانا بعد بعثة النبى ﷺ .

وجاءت جملة - وعلى أبصارهم غشاوة - اسمية لإفادة الدوام والاستمرار لأن الغشاوة على أبصارهم موجودة ومستمرة قبل البعثة وبعدها، فهم لا يبصرون الآيات الدالة على قدرة الله وجلاله وكماله، ولا يتأملونها، ولايفكرون فيها، ولا يلقون لها بالا، ولا يرفعون إليها رأسا، قال تعالى:«وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون[2] وقال « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى

---

(١) سورة النحل ١٠٨ .

(٢) سورة يوسف عليه السلام ١٠٥ .

الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون»[1] وقال: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»[2] .

ولما كانت آفة القلوب والسمع المانعة من الاستجابة للحق خفية ذكر الختم فى جانبهما ، ولما كانت آفة الأبصار المانعة من الرؤية ظاهرة ذكرت الغشاوة فى جانبها ، قال تعالى في وصف الكفار« .... الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعا »[3].

وجمعت القلوب والأبصار دون السمع لاختلاف القلوب باختلاف الناس وتفاوتها في استيعاب ما يلقى إليها من حجج وعظات وأدلة وبراهين .

ولاختلاف الأبصار باختلاف الناس وتفاوتها في النظر في آيات الله الكونية، كل يستفيد على قدر استعداده وإخلاصه .

أما المسموع فهو شيء واحد ثابت لا يختلف باختلاف الناس زمانا ، ومكانا ، ولونا ، وجنسا ، لأنه دليل الله وحجته التى نادى بها المرسلون، ولأن مدركات السمع نوع واحد هو الصوت، ولأن السمع فى الأصل مصدر يستوي فيه الإفراد والتثنية والجمع .

وذكر الختم والطبع والغشاوة فى القران الكريم في جانب الكفار يفيد

(١) سورة يونس عليه السلام ١٠١ .
(٢) سوره الصف ٥ .
(٣) سورة الكهف ١٠١ .

أنهم ليسوا مجبورين علي الكفر لأن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم عقاب لهم من الله فى الدنيا على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم وإرادتهم فعاقبهم الله بعدم التوفيق والرشاد والهداية وكان ذلك جزاء وفاقا كما قال: «بل طبع الله عليها بكفرهم»[١] «بل لعنهم الله بكفرهم»[٢]، «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»[٣]، «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»[٤].

«ولهم عذاب عظيم» :

والعذاب مأخوذ من عذب أى امتنع، يقال: عذب الحصان: إذا امتنع عن العلف، ويقال: عذب الرجل: إذا امتنع عن الأكل والنوم، ومنه: الماء العذب لإزالته العطش ومنعه.

فالصيغة معناها: الحبس والمنع، والفعل من باب: ضوب، والعذاب والنكال متوافقان مبنى ومعنى، ويطلق العذاب على: الإيلام الشديد البدنى والنفسى .

وسمى الإيلام الموجع بالعذاب لأنه يمنع من ارتكاب الذنوب والآثام.

والعظيم معناه: الكبير، ويقابل العظيم : الحقير، ويقابل الكبير :

---

(١) سورة النساء ١٥٥ .

(٢) سورة البقرة ٨٨ .

(٣) سورة الصف ٥ .

(٤) سورة المطففين ١٤ .

الصغير، والكلمة صيغة مبالغة مأخوذة من عظم الشيء إذا كبر عظمه، وتستعمل الكلمة في كل كبير محسوسي أو معقول،

وتطلق كلمة «العظيم» علي: الكبير في الحجم والقوة والتأثير ولذلك ذكرت دون كلمة الكبير.

وصيغ المبالغة فى القرآن والسنة حقيقة وواقع وليست خيالا ولا ادعاء ولا تمثيلا لأنها أوصاف وصيغ تطابق الحق والواقع .

وقدم الخبر علي المبتدأ فى الجملة لإفادة الحصر

ونكرت كلمة « عذاب »لإفادة التعظيم والتهويل والتنويع والتكثير، فهو عذاب لا يكتنه كنهه ، ولا يقادر قدره ، ودونه كل عذاب .

فالله جل وعلا بين لنا في هاتين الآيتين الكريمتين
أن فريقا من الكافرين غلبت عليهم شقوتهم ، واستمرأوا الكفر وآثروه علي الإيمان ، وهم مستمرون فيه ، ثابتون عليه ، متشبثون به الي موتهم وهلاكهم ، ولا يجدي الإنذار معهم ، فإنذارهم وعدمه سواء ، وسبب ذلك ترديهم في الكفر ، وارتكاسهم في الكبائر ، وانغماسهم في الموبقات والمهلكات ، واستحبابهم الضلالات ، والحياة في الظلمات ، حتي صارت علي قلوبهم وسمعهم أغلفة ، وعلي أبصارهم غشاوات وأغطية ، تحول بينهم وبين الإيمان ، مما أدي الي فساد قلوبهم ، وتعطيل الطرق التي توصل العظات لإصلاحها وعلاجها ، وهؤلاء لهم في الآخرة عذاب كبير قوي موجع مؤلم لا يقادر قدره .

وتدل الآيتان علي صدق الرسول محمد ﷺ وهو الصادق الأمين المصدوق - لأنه أخبر بواسطة الوحي اليه بالقرآن أن الموصوفين بما تقدم لايؤمنون ، فكان الحال كما أخبر رغم تطاول الزمان واستمرار التحدي بالقرآن ، وصدق الله في قوله : « **كذلك حقت كلمة ربك علي الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** »، وقوله : « **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتي يروا العذاب الأليم** »[1].

---

(١) سورة يونس عليه السلام ٣٣ - ٩٦ - ٩٧.

تمويه المنافقين وابراز

بعض صفاتهم الرذيلة ومواقفهم القبيحة

قال الله تباركت أسماؤه :

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (١٠) وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون (١١) ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون (١٢) وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الي شيطانهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدي فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦) مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمي فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله علي كل شيء قدير (٢٠)

وهذه الآيات الكريمة الثلاث عشرة تتحدث عن المنافقين ، وتذكر بعض صفاتهم وعوارهم ، وتكشف عن خبث نواياهم وقبح مواقفهم .

ومناسبتها لما قبلها أن الله لما ذكر اهتداء المتقين المخلصين الصادقين بالقرآن الكريم في الباطن والظاهر ، وذكر أضدادهم وهم الكافرون كفر ا صريحا في الباطن والظاهر ، ونفي الطمع في إيمانهم وبين جزاءهم ، أتبعهم بذكر الفريق الثالث المذبذب المتلون الجامع بين الإيمان الظاهري والكفر الباطني وهم المنافقون في العقيدة والعمل ، فقصتهم معطوفة علي قصة الذين كفروا كعطف الجملة علي الجملة .

وسبب نزول هذه الآيات هو ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب ، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول ومعتب بن قشير وجد ابن قيس ، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون : إنا لنجد في كتابنا نعته وصفته ، ولم يكونوا كذلك إذا خلا بعضهم إلي بعض [1].

ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين »:

و« من » للتبعيض أي بعض الناس ، وجاءت جملة « يقول » بصيغة الإفراد وجملة « وما هم بمؤمنين » بصيغة الجمع باعتبار لفظ « من » الموصولة ومعناها .

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدى صـ٢٠ والتفسير الكبير للرازي حـ٢ صـ٦١ .

ولفظ « الناس » اسم لعالم الإنس ، وأصله : الأناس حذفت منه الهمزة تخفيفا ، وهو اسم جمع ، مفرده إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، مأخوذ من النوس وهو : التحرك ، يقال : ناس ينوس أي تحرك يتحرك ، وتصغير الناس : النويس .

وقيل مأخوذ من النسيان ، وأصله : نسي ، قلب فصار: نيس ، ولما كانت الياء متحركة وما قبلها مفتوح قلبت ألفا ثم اقترنت بالكلمة أل فصارت : الناس ، وأل للجنس قال ابن عباس رضي الله عنهما : نسي آدم عهد الله فسمي إنسانا .

وقيل مأخوذ من الأنس لأنه يأنس بربه ، قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ∴ ولا القلب إلا أنه يتقلب [1]

واليوم الآخر » هو اليوم الدائم الخالد الأبدي الذي لا نهاية لبقائه ودوامه ، ويتنعم فيه أصحاب الجنة بها ، ويشقى فيه أصحاب النار بها ، وله أسماء وأوصاف ، وتحدث فيه أمور عظام وأحداث جسام مذكورة في القرآن والسنة ، ويبتدئ بالبعث.

وسمي بالآخر لأنه آخر الأوقات المحدودة بالأيام والشهور والسنين .

وقال الله عن المنافقين : « ومن الناس » دون وصفهم بصفة الإيمان ، أو بصفة الكفر ، لأن المنافقين فئة من الناس متلونون كالحرباء ، مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهم جمعوا بين الإيمان الظاهري

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي صـ١٦٧ - ١٦٨

الشكلي وبين الكفر الباطني القلبي وفي الإخبار عنهم بذلك إشارة إلي ررايتهم وعدم المبالاة بهم. والحط من شأنهم ، فهم مجرد ناس مموهين مدلسين ،لا يؤبه لهم ولا يعبأبهم .

وفي إخبار الله عنهم بقوله : « يقول آمنا » إشارة إلي أنه مجرد كلام باللسان لا أثرله في الجنان ، فهم يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم.

وفي قولهم « آمنا بالله وباليوم الآخر » وتكرار حرف الجر زيادة تمويه وتلبيس علي المسلمين وزيادة خداع لهم ، فهم يتظاهرون بأنهم أحاطوا بالإيمان كله وجمعوا طرفيه وتوافر فيهم وتكامل ، فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر لابد أن يكون مؤمنا ببقية الأركان وهي : الإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل والقدر خيره وشره ، ويكون مستعدا لليوم الآخر بالأعمال الصالحة ،

ورد الله عليهم دعواهم الإيمان وكذبهم وبين أنها دعوي مزعومة بقوله: « وما هم بمؤمنين » :

وفي هذه الجملة رد بليغ عليهم حيث جاءت الجملة اسمية وجاء الخبر مقرونا بالباء الجارة المؤكدة لنفي الإيمان عنهم وإخراجهم من عداد المؤمنين .

وحذف متعلق الإيمان مراعاة لفواصل الآيات وخواتيمها ولإفادة العموم والشمول أي ليسوا بمؤمنين بشيء يجب الإيمان به أصلا ، فهم يدعون الإيمان والله يشهد إنهم لكاذبون .

والمنافقون في العقيدة والسلوك أخبث الكفرة وأمكرهم وأكثرهم دهاء ولذا أطال الله هنا الكلام عنهم لأنهم كانوا يخالطون المسلمين ويعايشونهم ويندمجون بهم وهم عيون عليهم وجواسيس لأعدائهم ، فظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين ، ولذلك جعلهم الله في الآخرة في الدرك الأسفل من النار ، وأخبر أن من يريد منهم العودة بصدق إلي الإسلام في الدنيا فعليه أن يتوب إلي الله توبة نصوحا صادقة ، وأن يصلح سريرته وسيرته ، وأن يعتصم بالله وحده ، ويخلص دينه لله ، وبعد تكامل هذه المطالب فيه يكون مع المؤمنين أي يكون ملحقابهم وليس منهم ،

قال تعالي : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما »[1].

والنفاق في العقيدة يستلزم النفاق في السلوك والعمل ، أما النفاق في السلوك والعمل فلا يستلزم النفاق في العقيدة ، ولذلك نجد بعض المسلمين يتصفون ببعض صفات المنافقين كخلف الوعد ، والفجور في الخصومة ، وخيانة الأمانة ونحو ذلك ، وهو نفاق سلوكي وليس نفاقا عقديا ، ولا يخرجهم ذلك عن دائرة الإسلام ، فهم مسلمون عصاة آثمون .

نسأل الله السلامة من النفاق والمنافقين والوقاية ، والهداية إلي أحسن غاية .

---

(١) سورة النساء ١٤٥ - ١٤٦

وبدأ ظهور النفاق في العقيدة والسلوك في المدينة المنورة من بعض اليهود وغيرهم حين أبصروا عظمة الإسلام تزداد ، وقوة المسلمين تعلو ، وشوكتهم تقوى ، وعزهم وبأسهم ينمو ويتزايد اليوم بعد اليوم .

ولم يظهر في مكة لأن القوة والغلبة والشوكة والكلمة كانت لمشركي مكة ، وكان المسلمون فيها قلة أذلة ضعافا .

فحيث يقوي المسلمون وتكون لهم العظمة والقوة والسلطان والهيمنة يظهر النفاق من أعدائهم خوفا منهم ، وحين يكون المسلمون في وهن وضعف لا ينافقهم أعداؤهم ولا يخشونهم .
نسأل الله للإسلام والمسلمين العزة والسيادة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله :
النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلو صاحبه في النار ، وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار لأن المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته . وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه اهـ [1].

« يخادعون الله والذين امنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »:

وعلاقة هذه الآية بما قبلها أنها جواب سؤال مقدر ناشيء من الآية

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ صـ٤٧

السابقة كأن سائلا سأل : ماسبب قول المنافقين آمنا بالله وباليوم الآخر والحال أنهم ليسوا بمؤمنين .

فجاء الجواب في هذه الآية ، فبينها وبين سابقتها شبه كمال اتصال ، ولذا لم تبدأ بحرف العطف ، أي هم يقولون ما يقولون خداعا لله وللذين آمنوا .

و« يخادعون » فعل مضارع مشتق من الخدع بمعني : الإخفاء والإبهام والختل ، يقال : خدع فلان فلانا خدعا أي ختله واحتال عليه وأراد به شرا من حيث لا يدري ، ففي المادة معني المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، والفعل من باب : فعل يفعل كمنع يمنع ، وأصله من : خدع الضب حارسه إذا احتال عليه وتظاهر بالإقبال نحوه ثم هرب من باب آخر وجهة أخري.

و« يخادعون » من المخادعة التي يكون فيها اشتراك من الجانبين في الفعل :

فبالنسبة إلي المنافقين يكون خداعهم لله بإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر وتظاهرهم بالمشاركة في الخير والجهاد ليحفظوا دماءهم وأموالهم ويحظوا بنصيب من الغنائم ظانين أن حالتهم لن تنكشف ، فتصرفهم السيء صورته صورة الخداع لله ويعملون عمل المخادع .

وخداع الله لهم يكون بإمهالهم واستدراجهم والإملاء

لهم ليزدادوا إثما وشرورا ويعاقبهم ولا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، قال تعالي:«إن المنافقين يخادعون الله وهم خادعهم »(١)

وخداعهم للمؤمنين يكون بتظاهرهم بالأخوة في الدين وحب الخير لهم ظانين أن ذلك سينطلي وبروج عليهم ، وهم في الحقيقة يبغضونهم ويضمرون الشر والعداوة لهم ، ويتمنون لهم السوء.

وخداع المؤمنين لهم بالصبر عليهم ، والحذر والحيطة في التعامل معهم، وتفويض أمرهم إلي الله ، قال تعالي : « .... يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أني يؤفكون (٢).

ويجوز أن يجرد الفعل من المشاركة من الجانبين كقولك عاقبت اللص، وجاءت صيغته كذلك لإفادة مبالغة المنافقين في الختل والخداع والتمويه والتدليس .

ولم تذكر الآية مخادعتهم للرسول ﷺ لأن خداعهم لله يعد خداعا لرسوله فهو الذي اصطفاه واجتباه للرسالة وأمره بتبليغ أحكامه وشريعته ، فطاعته طاعة لله ، وعصيانه عصيان لله ،

---

(١)- سورة النساء ١٤٢ والآية من باب المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، والمشاكلة محسن من محسنات علم البديع . ويوجد لها في القرآن والسنة الكثير من الأمثلة .

(٢)- سورة المنافقون ٤

قال تعالي : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ... »[1] ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ... »[2]، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ... »[3].

أو أن خداعهم للذين آمنوا خداع لرسول الله ﷺ لأنه أول المؤمنين وأفضلهم ورائدهم وأسوتهم وقدوتهم وأبوهم الروحي[4]، فخداع المنافقين لهم خداع له من باب أولي .

« وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »:

وهذه الجملة حالية تبين غباوة المنافقين وبلادتهم ، فهم يحاولون جهدهم خداع الله والمؤمنين بتظاهرهم بالإيمان وفعل الخيرات وقلوبهم تقطر سموما وأحقادا وإحنا وكراهية للإسلام والمسلمين ، وما يعلم هؤلاء المنافقون أن جزاء الخداع ووباله يعود عليهم .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « وما يخادعون إلا أنفسهم » بالألف علي وزن : يحاولون ، وقرأ أهل الشام : « وما يخدعون بدون ألف

(١) سورة النساء ٨٠ .

(٢) سورة الفتح ١٠ .

(٣) سورة الحشر ٧

(٤) رسول الله أب روحي للمؤمنين وأزواجه أمهاتهم كما جاء في سورة الأحزاب حيث يقول تعالي : النبي أولي بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم - وهو أب لهم - » كما جاء في قراءة شاذة ، أما قوله في نفس السورة : ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ... » فالمنفي الأبوة في النسب، وله ولأزواجه ما للآباء والأمهات من البر والاحترام والإجلال والتوقير .

علي وزن : يفرحون ، أي المخادعة من فعلهم . والخدع إنما يحيق بهم خاصة دونه [1].

والأنفسي : جمع نفس ، وهو جمع قلة ، وتطلق الكلمة علي ذات الشيء وحقيقته ، وعلي الجوهر اللطيف الساري في الجسد ويحصل به الحس والحركة والإدراك ، قال تعالي :« الله يتوفي الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ..» [2]، وقال في شأن الكفرة :« .. ولو تري إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم »[3]. والمعنيان يندرجان تحت عموم الجملة الكريمة. وتطلق النفس علي غير ذلك

و« يشعرون » فعل مضارع يقال : شعر فلان بكذا أي فطن له وتشبه، والفعل من باب : كتب وشرف ، ومنه : الشاعر لذكاء صاحب الشعر ونباهته ، ومشاعرالإنسان حواسه التي بواسطتها يتم العلم بالشيء.

وجاءت الجملة بصيغة الحصر وطريقه النفي والاستثناء لبيان أن جزاء خداع المنافقين وعاقبته السيئة ستعود عليهم وحدهم وسيلقون جزاء مكرهم وخبثهم .

ونفي الله عنهم الشعور مع أن حواسهم ومشاعرهم سليمة صحيحة

---

(١) انظر حجة القراءات لأبي زرعة صـ٨٧ والنشر لابن الجزري جـ٢ صـ٢٠٧ وغيث النفع للصفاقسي صـ٨٣ .

(٢) سورة الزمر ٤٢

(٣) سورة الأنعام ٩٣

لأنهم لم ينتفعوا بها ولم يستفيدوا منها وكفروا بنعمها واستغلوها في معصية الله ورسوله فصاروا فاقديها.

ولم يذكر متعلق الفعل - يشعرون - مراعاة لفواصل الآيات ولإفادة العموم والشمول ولإتاحة مجال التأمل والتفكر في القرآن الكريم ولتذهب النفس في تقديره كل مذهب .

أو أن الفعل منزل منزلة الفعل اللازم فلا يحتاج مفعولا.

وجاءت الأفعال في الآية الكريمة بصيغة المضارعة لإفادة التجدد والحدوث والتكرار .

فالآية الكريمة تبين أن المنافقين أهل مخادعة ومخاتلة وأصحاب خبث ومداهنة ومراوغة ، لا تواطيء سريرتهم سيرتهم ، ولا فعلهم قولهم ، ولا باطنهم ظاهرهم ، فهم يخفون الكفر ويكتمونه ويظهرون الإيمان ويعلنونه واهمين أن حالتهم تخفي وأنها ستنطلي علي الله وتروج علي المؤمنين وما علموا أن وبال خداعهم ونكاله يعود عليهم وأن عذاب الله نازل بهم لا محالة ولا مناص منه ، فهم أخس من الحيوانات وأضل لأن لها إحساسا وشعورا وهؤلاء فاقدو الإحساس عديمو الشعور.

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »:

وهذا وصف آخر من أوصاف المنافقين وبيان لسبب خداعهم لله وللذين آمنوا

والمرض ضد الصحة ، وهو : ما يؤدي إلي الاعتلال وضعف الحيوية وقلة النشاط والخروج بالجسم عن حد الإعتدال ، ويكون بدنيا ونفسيا ، وتختلف نسبه ويتفاوت مقداره .

وفي الجملة - في قلوبهم مرض - قصر طريقه تقديم ما حقه التأخير،

ونكرت كلمة « مرض » لإفادة التعظيم أي مرض عظيم كبير ملأ قلوبهم وتمكن منها تمكن الظر ف من المظروف فيه ، والمقصود به : النفاق.

وأفردت كلمة - مرض - للدلالة علي أن مرضهم جميعا واحد ،وأنهم علي منهج واحد ، ومسلك معروف ، وهو عداوتهم للإسلام ، وحقدهم وكراهيتهم للمسلمين ، وإذا كان القلب مريضا وهو ملك الجوارح ، والجوارح رعيته ، فإن القلب يكون فاسدا كاسدا ، وتكون الجوارح فاسدة كاسدة ، لا يرجي منها خير بالتبع .

وسمي النفاق والكفر والحقد والبغض والحسد للمسلمين بالمرض لأن هذه الأمور تفسد القلب وتلوثه وتُظلمه ، وتحول دون الوقوف علي قيمة الفضائل وفعلها .

وهذه جملة إنشائية دعائية عليهم بزيادة المرض في قلوبهم وأجسادهم كما وكيفا بسبب ازديادهم في السوء والقبائح ، وهي تفيد أن المنافقين يزدادون مرضا علي مرض وحسدا علي حسد ورجسا إلي رجس كلما أبصروا زيادة عظمة الإسلام وانتشاره وزيادة قوة المسلمين وانتصاراتهم اليوم بعد اليوم والمرة تلو المرة .

وقد كانوا كغيرهم من الكفرة يكرهون أي نعمة ينالها المؤمنون ، وأي خير يمنحه الله لهم ، قال تعالي : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها .. »[1]، وقال سبحانه :«ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » [2]، وقال جل شأنه : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء .. » [3] وغير ذلك من الآيات .

وهذا في الدنيا ، أما في الآخرة فقد أخبر الله عنهم بقوله :
« ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »

وجملة « ولهم عذاب » تفيد الحصر ، وطريقه تقديم ماحقه التأخير .

ونكرت كلمة « عذاب » لإفادة التعظيم والتهويل والتكثير

---

(١) سورة آل عمران ١٢٠

(٢) سورة البقرة ١٠٥

(٣) سورة النساء ٨٩ .

والتنويع.فعذاب الآخرة في جهنم قوي شديد لا يقادر قدره ، وكثير ومتنوع وبدني ونفسي .

و« أليم » صيغة مبالغة من ألم يألم علي وزن فعل كفرح وسمع ، وهو فعيل بمعني فاعل أي عذاب مؤلم موجع لهم ، أو فعيل بمعني مفعول ، وإذا كان العذاب نفسه متألما فما بالنا بمن يكون فيه ويقع عليه ويحيق به .والباء في قوله « بما » للسببية ، وما موصولة أو مصدرية أي لهم عذاب مؤلم موجع منغص لهم بسبب تسلحهم بأهون الأسلحة وأخسها وأفسدها وهو كذبهم علي الله وعلي رسوله والمؤمنين .

والكذب : الخبر المخالف للواقع . وضده الصدق .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي « يكذبون » بتخفيف الذال ، وقرأ الباقون من القراء بتشديدها من كذب يكذب تكذيبا أي يكذبون النبي ﷺ والقرآن[1].

وجاء الفعل - يكذبون - مضارعا لإفادة التجدد والحدوث والتكرار أي تجدد الكذب منهم وتكرره وإلفهم له ، وللإشعار بشمول الآية لكل منافق في أي زمان ومكان يسلك هذا المسلك وينحو ذلك المنحي .

ولا شك أن المنافقين كاذبون في قولهم ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ لأن

(١) انظر الحجة القراءات لأبي زرعة صـ٨٨

والنشر في القراءات العشر لابن الجزري جـ٢ صـ ٢٠٧ ، وغيث النفع للصفاقسي صـ٨٣.

قولهم يخالف قلوبهم وواقع حياتهم فهم يحادون الله ورسوله ومن يحادد الله ورسوله فهو في الأذلين الأخسرين .

وذكر كذبهم وجعل سببا لإنزال العذاب الأليم بهم وإيقاعه عليهم للإشعار بقبح الكذب وشناعته وبشاعته والتنفير منه والتكريه فيه والتشنيع عليهم ، فهم ضموا إلي صفة الكفر أقبح صفة وهي صفة الكذب، والكذب يؤدي الي ظلمة القلب واسوداده وإلي الفجور ، والفجور يقضي إلي النار ، والمؤمن الحق لا يكون كاذبا .

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون » وهذه الآية تذكر دعوي من دعاواهم وكذبة من كذباتهم الكثيرة أي إذا أرشدهم مرشد ونصحهم ناصح بالخير والاستقامة من جماعة المؤمنين ، ونهاهم عن الفساد والإفساد في الأرض والإضرار بأنفسهم وغيرهم ، زعموا متبجحين أنهم مصلحون وانهم مستمرون في الصلاح والورع مستقيمون علي الطريقة لا يعرفون الفساد ولا يتصفون به

وهذه الصفة تجدها في عصاة بعض المسلمين ، تراهم يرتكبون معاصي وحماقات وإذا نهيتهم عنها زعموا بجهلهم أنهم علي الإصلاح وعلي الصراط المستقيم وأنهم يحسنون صنعا ولا يعرفون الفساد والعناد ولا يعرفهم . وهؤلاء وأولئك ينطبق عليهم قوله تعالي في شأن أحد العصاة الأشقياء : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ... » (١)

(١)- سورة البقرة ٢٠٦

وقرأ أبو عمرو « قيل لهم » بإدغام اللام في اللام وذلك بإسكان الحرف الأول وادغامه في الثاني ليعمل اللسان مرة واحدة ، وقرأ باقي القراء بإظهار اللامين إتيانا بالكلام علي أصله وأداء لحق كل حرف من الإعراب لتكثير الحسنات ومضاعفتها [١].

وبني الفعل للمفعول أولا لم يسم فاعله لكثرة القائلين والناصحين لهم ولإفادة العموم ، أي إذا قال لهم قائل ما ونصحهم ناصح ما بلسان المقال أو بلسان الحال ، وللدلالة علي شيوع الفساد وانتشاره منهم .

وجملة « لا تفسدوا في الأرض » قصد لفظها فهي في محل رفع تقع نائب الفاعل أي إذا قيل لهم هذا القول .

والفساد ضده : الصلاح ، والإفساد ضد الإصلاح ، والمقصود به العبث بالشيء والخروج به عن حد الإستقامة والانتفاع .

والمقصود بالأرض : أرض المدينة المنورة لأنهم كانوا يعيشون عليها وتكون أل للعهد .

ويجوز أن يراد بها : كل الأرض وتكون أل للجنس لأن الفساد في مكان ما إذا استشري واستفحل وانتشر فيه انتقلت عدواه إلي أماكن أخري كالمكروب .

وكانوا يكيدون لرسول الله ﷺ ويكذبونه ، ويرجعون في المدينة

---

(١)- انظر حجة القراءات لأبي زرعة صـ٨٣ - ٨٤

بالشائعات ويثيرون الفتن ويلقون الشبهات في سبيل الدعوة بهدف التشكيك في الدين والصد عن سبيل الله ، ويحالفون أعداء الاسلام ويوالونهم وينا صرونهم ، فاستحقوا غضب الله عليهم وعذابه ، وصدق الله في قوله : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون »[١].

وجملة « إنما نحن مصلحون » تفيد القصر وهو من قبيل قصر الموصوف علي الصفة ، وطريقه « إنما » الكافة والمكفوفة .

وجاءت الجملة اسمية لزعمهم دوام الصلاح واستمرار الاستقامة ، وجاءت الجملة بصيغة الجمع للإشعار بكثرتهم واعتزازهم بأنفسهم واعتزازهم بأجسامهم وحسن كلامهم وتنميقه كما قال جل جلاله في شأنهم: « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة .. »[٢]. وقال عز سلطانه :« ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول .. » [٣].

« ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »:

وهذا رد عليهم وزجروإفحام لهم . وبدئت الجملة وصدرت بأداة الاستفتاح والتنبيه لشد انتباه السامع وإيقاظه وتنشيط إدراكه لفهم ووعي

---

(١) سورة النحل ٨٨

(٢)- سورة المنافقون ٤

(٣)- سورة محمد ٣٠

ما يأتي بعدها ، وتفيد تأكيد المعني الذي يذكر بعدها وتقريره ، وكآن الله يقول : دعك مما قالوه عن أنفسهم وتنبه لصفتهم الحقيقية الواقعية .

قال العلامة الراغب الأصفهاني : صوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المرض كما في قوله تعالي : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ... »[1]، وقوله : وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » [2]، وقوله:« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »[3].

وجاءت الجملة الكريمة - إلي جانب ماتقدم - مؤكدة بإن ، وبضمير الفصل ، واسمية ، ومعرفة الطرفين ، وبالاستدراك بعدم شعورهم ، لتأكيد المعني وإفادة الحصر وبيان أنهم هم المفسدون لا غيرهم وأنهم الكاملون في الفساد الغارقون فيه ،.

ونفي الله شعورهم بأنهم هم المستغرقون في الفساد الحاذقون له البارعون فيه المتمرسون عليه للدلالة علي تبلد أحاسيسهم ومشاعرهم وأنها كالعدم .

وذكر الشعور المنفي هنا لقربه من الشعور المنفي في قوله السابق : « وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون »، ولأن ألوان الفساد وآثاره تعرف بالحواس والمشاعر .

---

(١) سورة فاطر ٨

(٢) سورة الأنعام ٤٣

(٣) سورة الكهف ١٠٣ - ١٠٤

فالآيتان الكريمتان المجيدتان تبينان أن المنافقين قوم بهت عاشوا في الأرض فسادا ، واتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فأصمهم وأعمي أبصارهم وأحبط أعمالهم ، وإذا نصحهم ناصح ودلهم علي الخير وحاول منعهم من الإفساد في الأرض ادعوا الإصلاح والصلاح والورع والتقي والتعفف استكبارا في الأرض ومكر السيء ، وقالو نحن مصلحون لا غير ، نصلح غيرنا وصالحون في أنفسنا ، ونسعي للخير وفي الخير ، ولا تحتاج إلي من يقومنا ويوجهنا ويرشدنا ، ولا يصح مخاطبتنا بذلك ، فرد الله عليهم بأنهم هم المفسدون لاغيرهم ويستحقون العذاب الأليم علي فسادهم في أنفسهم وإفسادهم لغيرهم ، ولكن شعورهم ميت وأحاسيسهم معطلة فوجودها كعدمه.

وفي الآيه الكريمة دليل علي أهمية وحتمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.والضرب علي أيدي المفسدين العابثين في الأرض.ومنعهم من المنكرات .

«وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» (١٣):

وعلاقة هذه الآية الكريمة بسابقتها واضحة جلية لأن الناصحين - وهم مخلصون - لهم نهوهم أولا عن الإفساد فى الأرض، ثم أمروهم بالإيمان الحق الصادق فى الظاهر والباطن، فجاء الأمر بالإيمان فى هذه الآية عقب النهى عن الشرور والآثام والمنكرات فى الآية السابقة، ولذا عطفت هذه الآية على سابقتها عطف الجملة على الجملة .

وقدم النهى عن الإفساد على الأمر بالإيمان لأن التخلى يكون قبل التحلى، ولأن الأَوْلَى منع انتشار الضرر وتفشيه فى الأرض ومحاصرته وإزالته أولا .

و «السفهاء» جمع السفيه، وهو مشتق من السفه، ويطلق على الخفة والرقة والضعف والاضطراب والحركة، تقول: ثوب سفيه: إذا كان خفيفا أو رقيقا، وتقول: سفهت الريح الشجرة: إذا أمالتها وحركت أغصانها وأوراقها بشدة، وكثر استعمال هذه الكلمة فى ضعف الرأى وخفته وسذاجة صاحبه وحماقته، وقلة درايته بما ينفعه أو يضره .

وكان المنافقون إذا اجتمعوا تكلموا فى حق المؤمنين ووصفوهم بالسفاهة ويقول بعضهم لبعض كقول غيرهم من الكفرة عن الإسلام: «لو كان خيرا ماسبقونا إليه» .

وأحيانا يقول بعضهم لبعض معاتبا متعجبا: كيف نؤمن كما آمن

سفيه بنى فلان وسفيه بني فلان؟ ويقصدون فقراء المسلمين ومواليهم كبلال ابن رباح وصهيب الرومى وعمار بن ياسر وغيرهم .

وهذا الموقف من حماقتهم وانحطاط رأيهم واختلال آلات إدراكهم وانقلاب معاييرهم حتى ظنوا الخير شرا والشر خيرا ، والصلاح فسادا والفساد صلاحا .

والمقصود بـ «الناس» فى الآية الحكيمة: المؤمنون وفي صدارتهم وعلى رأسهم رسول الله ﷺ .

والغرض من الاستفهام المذكور فى الآية: النفى والإنكار والتعجب والاستهزاء .

وغار الله لهؤلاء المؤمنين الصادقين فرد على المنافقين قولهم ردا بليغا كابتا لهم، فاضحا حالهم، هاتكا سرهم، كاشفا عوارهم، فقال: «ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون» :

وحملت هذه الجملة الكريمة نفس المؤكدات والأغراض الموجودة فى الجملة السابقة الرادة عليهم من قبل وهى: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» .

وذكر نفى الشعور هناك ونفى العلم هنا: لأن نفي الشعور قريب من نفى الشعور في الجملة السابقة فى قوله: «وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون»، ولأن الفساد تظهر آثاره وتكون محسوسة ملموسة فناسبه نفى الشعور .

أما السفاهة وخفة الرأى وحماقة العقل وضعفه فهى أمور معنوية لا مجال للوقوف عليها إلا بالعلم، فناسب السفاهة نفى العلم .

وفى نفي العلم عنهم رمي لهم بالجهل والغباء وتشبيه لهم بالحيوانات العجماوات .

ولم يذكر مفعول الفعل « لايعلمون» لمراعاة فواصل الآيات وخواتيمها، ولإفادة العموم والشمول، ولفسح مجال النظر والتأمل فى القرآن الحكيم، ولتذهب النفسى فى تقديره كل مذهب .

أو أن الفعل منزل منزلة اللازم فلا يحتاج مفعولا به .

فهذه الآية المجيدة تبين أن من نصحوا المنافقين أخلصوا لهم فى النصح والهداية، حيث نهوهم عن ألوان الشر والفساد أوّلاً، وأمروهم بالإيمان الكامل فى الظاهر والباطن وحسن السير والسلوك فى العلن والخفاء، والجهر والسر، ولكنهم ركبوا متن الباطل والشطط والخبال، وامتطوا ظهر الغواية والضلال، واعتبروا المؤمنين سفهاء، ورموهم بهذا النقص الموجود فيهم، فرد الله عليهم ردا مفحما قامعا، وكابتا دامغا، وبين أنهم هم السفهاء لاغيرهم، وأنهم شر الناس الذين يجب الحذر منهم، ولا يرجى خير منهم، ولا يؤمن شرهم .

ونفى شعورهم وعلمهم لاينفى عقابهم ومؤاخذتهم لأن أدلة الحق ساطعة ناصعة واضحة نيرة، ولكنهم عموا وصموا عنها، ولأن في نفي شعورهم ونفى علمهم وعدم ذكر متعلق الفعلين استهزاء بهم وتحقيرا لهم .

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون (١٥) أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦)» :

وهذه الآيات تبين خبث المنافقين، وتلونهم، وسوء سلوكهم، وعاقبتهم فى الدنيا والآخرة .

«وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ....» الآية .

وهذه الآية معطوفة على الآية السابقة عطف الجملة على الجملة .

و«لقوا»: فعلها: لقى، كرضى، يقال: لقى فلان فلانا، ولاقاه: إذا قابله أو استقبله والتقيا، والمصدر: لقاء ولقيا ولقية،

ومعنى قولهم: «آمنا»: نحن مخلصون فى إيماننا فى الظاهر والباطن وإن ذلك واضح لكم أيها المؤمنون ولا يحتاج منا إلى تأكيد لكم .

وقولهم للمؤمنين: «آمنا» يدل على سوء سمعتهم وارتياب المؤمنين فيهم وأنهم يدورون بأنفسهم ويحسون بخستهم ويحاولون الإعلان عن براءتهم مما هو معروف ومشهور عنهم على حد القول المشهور: كاد المريب يقول خذونى» .

ولم يذكروا متعلق «آمنا» ليوهموا المؤمنين ويروجوا عليهم بأنهم أحاطوا بكل أركان الإيمان، وهو إمعان منهم فى التضليل والخبث والتمويه والتدليس .

ومعنى: «خلا»: انفرد، يقال: خلا فلان بفلان أى انفرد به فى مكان، والفعل «خلا» يتعدى بالباء، وإلى، وتأتى معه: مع، يقال: خلا معه، والمصدر: خلوا، وخلاء، وخلوة .

ومعنى: خلوا إلى شياطينهم»: إذا انتهوا إلى قادتهم وأكابرهم ورؤسائهم وصنا ديدهم وجالسوهم فى خلوة وانفردوا بهم قالوا لهم: إنا معكم وعلى طريقكم ومتمسكون بمنهجكم فى عداوة الإسلام والمسلمين .

ويجوز أن يكون معنى «خلوا» مضوا وذهبوا كقوله تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض»[1]، وقوله: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»[2]، وقوله: «سنة الله فى الذين خلوا من قبل»[3]، أى إذا ذهبوا إلى قادتهم وزعمائهم طمأنوهم وقالوا لهم: إنا معكم وملتزمون بما تلتزمون به وسائرون على دربكم ولن نحيد عنه شيئا .

ولا تعارض بين المعنيين، فالجملة الكريمة تحتملهما وتشملهما بعمومها، وقد كان المنافقون يسلكون الأمرين معا .

وذكر «اللقاء» فى جانب المؤمنين، و «الخلوة» فى جانب أكابر المنافقين ورءوسهم: للإشعار بعدم أنسهم بالمؤمنين، وعدم انسجامهم معهم، وائتلافهم بهم، وأنهم يلتقون بهم مصادفة .

أما مع قادتهم فهم يحبونهم ويودونهم، ويذهبون إليهم، ويختلون

(١) (٢) سورة آل عمران ١٣٧ - ١٤٤ .
(٣) سورة الأحزاب ٦٢ .

بهم، ويعشقون مجالسهم، ويؤكدون لهم أنهم معهم، وعلى مذهبهم فى عداوة الإسلام وبغض المسلمين وكراهية الدين، وأن إعلانهم الإيمان أمر ظاهري وشكلى فقط، وسخرية بالإسلام والمسلمين، ولذلك ختمت الآية بقولهم: «إنما نحن مستهزئون» .

فهى جملة تقع جواب سؤال مقدر نشأ من قولهم لقادتهم: إنا معكم، كأنهم سألوهم: كيف تقولون إنكم معنا وأنتم تنطقون بالشهادتين وتظهرون الإسلام وتخالطون المسلمين؟ فكان الجواب: إنما نحن مستهزئون» .

فبين هذه الجملة وبين سابقتها شبه كمال اتصال، وفى الجملة قصر طريقه «إنما الكافة والمكفوفة .

وجاءت الجملة اسمية لإفادة دوام استهزائهم بالإسلام والمسلمين واستمراره وثباتهم عليه .

يقال: هزأ به، وهزأ منه، هزءا وهزوا، واستهزأ به، يستهزىء به، ومنه: أى سخر منه، وسخربه، واستخف به وتهاون، والفعل من باب: سمع، ومنع .

فالآية الكريمة تكشف موقف المنافقين وتلونهم، وتذبذبهم ولبسهم لكل موقف لبوسه، وتقمصهم لكل حال قميصها، فهم إذا التقوا بالمؤمنين فى مكان ما بادروهم بقولهم آمنا وأخلصنا الإيمان ولا تشكوا فينا، وإذا التقوا بقادتهم وأكابر مجرميهم المشبهين للشياطين فى كفرهم وعتوهم وتمردهم وسوء خططهم وقبح خطواتهم،- أوهم شياطين الإنس - قالوا لهم

مؤكدين: إنا معكم وناصروكم، ونحذو حذوكم، ولا تظنوا أننا مسلمون حقا، فنحن نهزأ بالإسلام ونسخر بالمسلمين ونخدعهم .

ومواقفهم معلومة لله تعالى، ولذا رد عليهم بقوله جل شأنه :

«الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون» :

ومعنى الاستهزاء: السخرية والازدراء والاستخفاف بالغير كما علمت عن كثب .

والسلف الصالح رحمهم الله وأكرم مثواهم يذهبون إلى أن هذه الصفة ونحوها نؤمن بها على ظاهرها، ويقولون: نصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله بطريق الوحى إليه، ولا نمثل ولا نعطل ولا نكيف، وإنما نمر الصفة كما وردت، ونفوض الكيف وكنه الحقيقة إليه جل وعلا .

أما الخلف فيذهبون إلي أن المقصود من الصفة لازمها وهو هنا: انتقام الله وعقابه للمنافقين على استهزائهم بدليل بقية الآية وتكملتها وهى قوله: ويمدهم فى طغيانهم يعمهون» .

وجاءت الصيغة فى جانب الله هكذا: «الله يستهزىء بهم» أي سمى عقابهم علي استهزائهم بالاستهزاء من باب المشاكلة[1] كقوله تعالى: إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم »[2]، وقوله : وجزاء سيئة

(١) سبق تعريف المشاكلة فى صـ ٨٤ .

(٢) سورة النساء ١٤٢ .

مثلها »[1] وقوله: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »[2]

ولا يخلو عهد الخلف من سلف ، ففى كل زمان يوجد أفراد يأخذون بمذهب السلف ويستمسكون به .

وجاء الفعل مضارعاً :« يستهزئ» لإفادة تجدد احتقار الله لهم، ومقته وغضبه عليهم، وتجدد المجازاة والانتقام منهم على استهزائهم .

والتجدد والحدوث والتكرار في جانب المنافقين والمعذبين ، أما في جانب الله فلا تجدد ولا حدوث ولا تكرار إذ كل شئ له معلوم من قبل ومن بعد ، وهو منزه عن البداء وعن صفات الحوادث والمماثلة لخلقه ، فالتجدد فى المعلوم لا فى العلم .

« ويمدهم » مشتق من المد بمعنى : الإمهال والمطاولة والزيادة ، وهو من باب : رد ، وشد ، ويستعمل المد فى الشر والمكروه كما هنا، وكما في قوله تعالى : قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » وقوله : كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً » [3].

أما الإمداد فيستعمل في الخير والمحبوب ومنه قوله تعالى : « بلي إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

---

(١) سورة الشورى ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ١٩٤ .

(٣) سورة مريم ٧٥ - ٧٩

الملائكة مسومين » [1] ،وقوله : ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين . . » [2] ،وغيرها من الآيات .

وإذا استعمل أحدهما فى موضع الآخر فلابد من قرينة تبين المراد منه، فهما مثل : وعد وأوعد .

والطغيان : مجاوزة الحد والمألوف ، ومنه قوله تعالى : إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية » [3]، أى زاد وفاض وعلا وارتفع وقوله : كلا إن الإنسان ليطغي .. » [4]، ومنه الطاغية وهو الإنسان الجبار العنيد .

و« يعمهون » مشتق من العمه ، وهو التحير والتردد في الشئ . والعمه والعمى بمعنى واحد، وقيل إن العمه يكون في القلب والرأى ، والعمى يكون في القلب وفى البصر ، والفعل عمه يعمه عمها على وزن فعل كسمع ، أو على وزن فعل كمنع .

فالآية الكريمة توضح غيرة الله لدينه وللمسلمين وتوعده لهؤلاء المنافقين ، وتبين أنه سينتقم منهم ولا يعبأ بهم ولا يبالى ، فهو يمهلهم ويمكنهم من المعاصى ويرخى لهم ليزدادوا طغيانا وآثاماً ويحيوا حياتهم في جهل سلوكى ، وعمى قلبى ، وفى حيرة واضطراب ، وقلق وأرق ، وبعد عن الرشد والخير .

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥ ، وانظر الآية التي قبلها برقم ١٢٤ .
(٢) سورة الإسراء ٦ .
(٣) سورة الحاقة ١١ .
(٤) سورة العلق ٦ .

ثم بين الله نهايتهم الأليمة ، وضياعهم وخسارتهم الوخيمة فى الدنيا والآخرة بقوله : «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» .

واسم الإشارة يعود على المنافقين الموسومين بالسمات السابقة وهي : التظاهر بالإيمان ، الخداع لله وللمؤمنين ، تبلد الشعور والإحساس ، امتلاء قلوبهم بالمرض والحقد والحسد والبغض للمسلمين،الكذب ، الفساد والإفساد في الأرض ، السفاهة والحمق ، الجهل والغباء ، الاستهزاء بالإسلام والمسلمين ، ازديادهم فى المعاصى وارتكاسهم فيها حتى عميت قلوبهم ، وتعطلت بصائرهم وأبصارهم عن النظر فى آيات الله .

وذكر اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد للإشعار ببعد هؤلاء عن رحمة الله ، وطردهم من ساحة رضاه ، ومقته لهم وسخطه عليهم .

و«اشتروا» مشتق من الاشتراء وهو الاستبدال وأصل الاشتراء : تسليم الثمن لتحصيل الشئ المطلوب .

والاشتراء والاستبدال إذا جاءت الباء الجارةمع أحدهما فى جملة أو مع مشتق من مشتقاتهما في جملة كان ما قبل الباء مرغوباً ومأخوذاً ، وما بعدها متروكاً ، فهؤلاء المنافقون أخذوا الضلالة وتمسكوا بها وتركوا الهدى ونسوه .

ومثل ذلك قوله تعالي:«ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل» [1]،أي من يختار الكفر ويأخذه ويتمسك به ويترك الإيمان ويهمله

(١) سورة البقرة : ١٠٨

وينساه فقد ضل السبيل السوية المستقيمه ، وقوله سبحانه : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » [1]، وغيرها من الآيات .

وذكر الاشتراء يدل على زهادتهم في الهدى وتركهم له بتمام رضاهم وإيثارهم الضلالة عليه .

وفي الجملة الكريمة استعارة تصريحية تبعية مرشحة : شبه اختيارهم واستبدالهم الضلالة بالهدى بالاشتراء بجامع المبادلة والمقابرة فى كل.ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه ، واشتق منه الفعل - اشترى - على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وقوله تعالي : «فما ربحت تجارتهم» ترشيح للاستعارة وتوضيح وتقوية لها .

قال الإمام الزمخشرى : وهذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا أهـ [2].

والضلالة : التيه والتحير والعدول عن الدين والبعد عنه، والمراد بها هنا : الكفر ، والمراد بالهدى : الصراط المستقيم البين النير الواضح وهو الحق .

والربح : الزيادة علي رأس المال، والتجارة : المهنة التي يمارسها الإنسان بإستخدام السلعة في البيع والشراء .

---

(١) سورة البقرة ٦١ .

(٢) انظر الكشاف للزمخشرى جـ١ صـ٣٧ .

ونفي الربح المسند إلي تجارتهم دليل علي خسرانهم هم وانطماس فطرهم وسفاهة عقولهم وخلوهم من الفضائل ، قال العلامة الآلوسى :

وفى الآية ترشيح ، والمقصد الأصلى تصوير خسارتهم بفوت الفوائد المترتبة علي الهدى التى هى كالربح ، وإضاعة الهدى الذى هو كرأس المال، بصورة خسارة التاجر الفائت للربح المضيع لرأس المال حتى كأنه هو ، على سبيل الاستعارة التمثيلية مبالغة فى تخسيرهم ووقوعهم فى أشنع الخسار الذى يتحاشى عنه أولو الأبصار [1].

وقوله : «وما كانوا مهتدين» بصيغة الماضى يدل على أنهم ميالون إلى النفاق والشقاق والكفر ، ونشأوا على الاعوجاج وشبوا عليه ، ولازموه لزوم الظل لهم ، أو لزوم النفس لأجسادهم .

ولم يذكر متعلق اسم الفاعل «مهتدين» لمراعاة فواصل الآيات وخواتيمها ، ولفسح محال النظر والتأمل في القرآن المجيد،ولذهاب النفس في تقديرة كل مذهب ، ولإفادة العموم والشمول ، أى ما كانوا مهتدين إلى الإيمان والرشاد ،أو إلى الخير،أو إلى أى شئ نافع مفيد لهم أو لغيرهم .

فهؤلاء المنافقون المتصفون بقبيح الصفات وذميم السمات مكنهم الله من النظر في الأدلة والآيات الدالة بوضوح وجلاء على الحق وعلى عظمة الإسلام وصدق رسوله محمد ﷺ ، لكنهم عموا عن النظر فيها ، وصموا آذانهم عن الاستماع لندائها وتدبر معناها ، وفضلوا حياة الظلمات الحوالك

---

(١) انظر روح المعاني للإمام الآلوسي جـ١ صـ١٦٢ .

على حياة النور والإشراق ، واستحبوا العمى والضلالة على النور والهدى، فخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب ولا إلي شئ نافع منج ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ويجوز أن تكون الآية الكريمة في قوم آمنوا ثم كفروا وازدادوا كفراً ، لأن المنافقين أنواع كما أشار من قبل الحافظ ابن كثير رحمه الله .

«مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون (١٧) صم بكم عمى فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير (٢٠):

وعلاقة هذه الآيات بما قبلها أن الله تعالى لما ذكر في الآيات السابقة صفات المنافقين الذميمة وبعض مواقفهم القبيحة من الإسلام والمسلمين ذكر في هذه الآيات مثلين لهم ليبرز أحوالهم ومواقفهم فى صورة محسوسة زيادة في توضيح حالهم وإبراز مواقفهم ليأخذ المؤمنون حذرهم وينفروا منهم.

أو أنهم لما وصفهم الله بإشترائهم الضلالة بالهدى عقبه بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة لما حول المستوقد، ويمثل الضلالة

التى اشتروها واستمسكوا بها بذهاب نورهم وتركهم في الظلمات لا يبصرون .

ولا تنافى بين المناسبتين فإحداهما لا تمنع الأخرى ، والآية الكريمة شديدة الأتصال قوية التلاحم بما قبلها إذ هى تقرر أحوالهم السالفة وتبرزها في صورة محسوسة ، ولذا لم تصدر بحرف عطف .

والمثل الثانى معطوف على المثل الأول وفيه زيادة تقرير وتوضيح لأحوالهم

و«المثل» والمثل ، والمثيل ، كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعني، ومعنى المثل عند اللغويين والأدباء: القول السائر الذى يشبه مضربه بمورده.

والمورد : الحالة والمناسبة التى قيل فيها المثل أول مرة ، والمضرب : الحالة المشابهة التي يقال فيها بعد ذلك .

والأمثال يحافظ عليها لفظا ومعنى فلا تغير ولا تبدل لأنها تراث علمى .

ثم استعير لفظ المثل للحالة والقصة والصفة العجيبة الغريبة ، وهذا المعنى هوالمراد فى أمثال القرآن الكريم إذ ليس لأمثاله مورد .

وضرب الله الأمثال فى القرآن لأغراض متعددة تختلف باختلاف المثل المضروب لها، والأمثال القرآنية تتنوع إلى أمثال صريحة، وكامنة، ومرسلة، وكل أمثاله صادقة وليست خيالا ولا ادعاء وافتراء .

وفى ضرب الأمثال تقريب للمعانى إلى الأذهان وتصويرها بصورة المحسوس، وإبراز الغائب فى صورة الشاهد الحاضر، وتقريب البعيد، وتوضيح الغامض الخفى، وهذا يرسخ المعاني فى القلوب ويمكنها في العقول ويثبتها فى النفوس، قال تعالى:.... وضربنا لكم الأمثال»[١]،

وقال سبحانه: وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»[٢]، وقال جل وعلا: وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون[٣] .

والضمير فى قوله مثلهم» يعود علي المنافقين المتصفين بالصفات السابقة، أى حال هؤلاء المنافقين وصفتهم العجيبة الغريبة كحال الذى استوقد نارا يستدفىء بها ويستضىء ...

و«الذى» اسم موصول عاد عليه الضمير مفردا فى قوله «استوقد» «حوله» باعتبار لفظ «الذى»، وعاد عليه جمعا فى قوله «بنورهم»«تركهم» «لايبصرون»... باعتبار معناه لأن معناه «الذين»، ، فهو يشبه مَنْ الموصولة .

ومثل هذه الآية قوله تعالى:... وخضتم كالذى خاضوا »[٤]، وقوله سبحانه: والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» [٥] .

(١) سورة إبراهيم عليه السلام ٤٥ . (٢) سورة العنكبوت ٤٣ .
(٣) سورة الحشر ٢١ .
(٤) سورة التوبة ٦٩ .
(٥) سورة الزمر ٣٣ .

ويجوز أن يكون اسم الموصول صفة لمقدر تقديره: مثلهم كمثل الفريق الذى استوقد نارا .

و«استوقد نارا» أى أو قدها وأشعلها وبذل جهده فى اتقادها وإشعالها حتي زاد سطوعها وضوؤها، فالسين والتاء تفيدان الطلب والمبالغة والمضاعفة في الوقود -بفتح الواو - والوقود - بضمها - .

و«النار»: جوهر لطيف مضىء حار محرق، مأخوذة من: نار ينور: إذا تحرك ونفر، وفى النار حركة واضطراب واهتزاز .

ونكرت كلمة «نار» للإشعار بعظمها وقوة سطوعها وتعب صاحبها فى استيقادها لينتفع بها .

«فلما أضاءت ماحوله»:الفاء لترتيب إضاءتها علي استيقادها، و«لما» ظرف زمان:بمعني حين وهى شرطية تحتاج فعل شرط وجوابه لكنها لاتجزم فهى مثل : إذا الظرفية، وكلما، ولو .

ومعنى «أضاءت»: أنارت بقوة لأن الضوء أقوى من النور، ولذلك كان الضوء للشمس والنور للقمر كما جاء في قوله تعالى: هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا .. »[1] .

و«حوله»: ظرف مكان، أي أضاءت النار الأماكن والجهات التى حول المستوقد فأبصر ما حوله واستأنس، وفى الحول معنى: الإحاطة والدوران، ويقال للعام : حول لإحاطته بالفصول الأربعة ولغه ودوراته وعودته كما بدأ.

(١) سورة يونس عليه السلام ٥ .

والمقصود بالنور هنا: ضوء النار، ويطلق علي ضوء كل منور .

ومعنى «ذهب الله بنورهم»: سلب نورها فجأة وأمسكه، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهوالعزيز الحكيم الغالب على أمره .

وقال «ذهب الله بنورهم» ولم يقل «بنارهم» لأن النور أعظم منافعها، والمقصود من إيقادها، وهو المناسب للمقام .

وقال «ذهب الله بنورهم» ولم يقل «بضوئهم» لأن الضوء قوة الإنارة وسطوعها، ولوقال «ذهب الله بضوئهم» لظن أن الذى ذهب وزال هو قوة الإضاءة وزيادتها وبقى أصلها، وهذا المعنى غير مقصود إذ المقصود ذهاب نورهم وسلبه كله بحيث لايبقي منه شيء ويكونون في ظلمات دامسة حالكة .

«وتركهم فى ظلمات لايبصرون»: أى أبقاهم» أو صيرهم فى ظلمات حالكة حياري متخبطين مضطربين لا يدرون ماذا يفعلون ولا كيف يخرجون منها .

وذكر «الترك» يدل على إهمالهم وعدم مبالاة الله بهم.

والظلمات: جمع ظلمة، وهى: عرض ضده النور، وبين الكلمتين طباق وهو محسن بديعى، ونكرت وجمعت للدلالة علي قوتها وشدة كثافتها وكثرتها وتنوعها وغرقهم فيها حتى إنهم لا يدرون كيف يتخلصون منها .

وفى المنافقين ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصى والآثام، وظلمة القلوب، وظلمة الصدور، وظلمة التصرف والسلوك .

وفى إفراد النور وجمع الظلمات إشعار بأن سبيل الحق واحد وهو الصراط المستقيم، أما طرق الباطل فهى متعددة متشعبة متعرجة، قال تعالى: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون»[1] .

وأسند إلي الله ذهاب نورهم وتركهم في ظلمات للإفادة بشدة غضبه عليهم وقوة مقته لهم وفرط انتقامه منهم .

وجملة «لايبصرون» توكيد لشدة الظلمات وكثرتها حتى إنهم لايبصرون شيئا ولايستفيدون من أبصارهم، ووجودها كعدمه .

فالمنافقون المتصفون بالصفات السابقة حالهم العجيبة الغريبة كحال من أضرموا نارا وأوقدوها وتعبوا في تغذيتها وتقويتها وإيقادها حتي تأججت وسطع ضوؤها ، ولما أضاءت الأماكن المحيطة بهم وهموا بالانتفاع والاستئناس بها باغتهم الله بإطفاء النار بالكلية، فظلوا فى ظلمات حالكة حيارى متخبطين لايدرون ما يصنعون،

كذلك كان المنافقون: لما دخل الإسلام المدينة المنورة تظاهروا بالإيمان، فعاملهم المسلمون بمقتضى الظاهر، وحقنوا دمادهم، وحفظوا أموالهم، ونالوا نصيبا من الغنائم، وبدأ انتفاعهم بالإسلام، ولما انتشر الإسلام وعمت أنواره، وبدأت انتصاراته، ازداد المنافقون كفرا وحقدا ، فطمس الله بصائرهم واستعدادهم،

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

وجعلهم فى حيرة وتردد واضطراب وقلق، كمن فى الظلمات ليس بخارج منها ولا يبرحها .«صم بكم عمي فهم لايرجعون» :

وهؤلاء المنافقون المتصفون بالصفات السابقة المتميزون بها المتخصصون فيها كالصم الذين لايسمعون، والبكم الذين لايتكلمون، والعمى الذين لايبصرون، وهم في الغى والضلالة سادرون ولا يقلعون، وإلي الهدي والاستقامة والصلاح لايرجعون ولايميلون .

وقوله «صم» خبر لمبتدأ مقدر أي هم صم ، وهى جمع: أصم، وهوالذى لايسمع، وأصل الصم: الصلابة والانسداد، ومنه يقال: حجر أصم.و«بكم» جمع : أبكم، وهو الأخرس الذى لايتكلم . و«عمى» جمع: أعمى، وهو الذى لايبصر .

ولم يذكر حرف عطف مع هذه الصفات لإفادة استقلال كل صفة في نهرهم وزجرهم وتوبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم، وتأكيد هذا المعنى وتقريره .

والفاء فى قوله فهم لايرجعون» للترتيب والتعقيب أي تفيدترتب عدم رجوعهم إلى الهدى والخير على وصفهم بالصم والبكم والعمى، فهى نتيجة لهذه الأوصاف والآفات وتشعر باليأس منهم.

و«رجع» فعل يتعدي بـ «إلي» وبـ «عن» تقول: رجع فلان إلي كذا، أي عاد اليه، ورجع عن كذا، أي بعد عنه وتركه، ويتعدى بنفسه إذا كان بمعنى: رد كقوله تعالى: فإن رجعك الله إلي طائفة منهم» [1]، وقوله:

---

(١) سورة التوبة ٨٣ .

فرجعناك إلي أمسك كى تقر عينها ولاتحزن ...»[1]، ولايتعدى بالهمزة إلا في لغة هذيل .

والجملة الاسمية تفيد دوام عدم الرجوع .

وفى الآية الكريمة تشبيه بليغ قوي حيث قدر المشبه وأداة التشبيه ووجه الشبه .

فالآية الكريمة تصور المنافقين بصورة الصم الذين لايسمعون، وبصورة البكم الذين لايتكلمون، وبصورة العمي الذين لايبصرون، ولاشك فى أن المنافقين كانوا لايسمعون سماع استجابة وطاعة ما ينفعهم ويفيدهم، وكانوا لا يتكلمون بما فيه الخير لهم ولغيرهم وإنما كانوا يفسدون فى الأرض بالقول والفعل، وكانوا لايبصرون سبل الخير ولايسلكونها ومن ثم فإنهم لايرجعون إلى الهدي الذي باعوه ونسوه، ولاعن الضلالة التي اشتروها وتعلقوا بها، ومن اجتمعت فيه الصفات السابقة: الصمم والبكم والعمي لايستفيد شيئا ولايفيد غيره بشىء بل يكون ثقيلا في مجتمعه عالة عليه ويكون عضوا مريضا ميئوسا منه، أو يعد من سقط المتاع .

وإن هذه الآية فذلكة التمثيل ونتيجته فإن حالهم المضروب له المثل

---

(١) سورة طه ٤٠ .

وجاء الفعل -رجع- الذى بمعنى رد متعديا بنفسه فى القرآن الكريم بصيغة الماضى كما رأيت وبصيغة المضارع والطلب والمصدر،والأمثلة فى القرآن كثيرة.

وسعيهم الخاسر أداهم إلى فقد الحواس والقوى ووقوعهم فى قفار لايرجع من ضل فيها ،

ثم ضرب الله للمنافقين مثلا ثانيا لزيادة كشف حالهم وإيضاح أمرهم وفضح مواقفهم فقال: «أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ..... إلي قوله سبحانه: إن الله على كل شىء قدير»:

و«أو» تفيد التسوية: وهو أحد معانيها كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين» أى جالس أحدهما وهما سواء، وإذا جالستهما معا فلا مانع، فأو للتسوية وهى مانعة خلو وتجوز الجمع بينهما .

وهى فى الآية تفيد جواز تمثيل المنافقين بأحد المثلين المذكورين أو بهما معا، وهذا توجيه لغوى لحرف«أو»وليس معناه جواز الاكتفاء بإحدي الآيتين فى الإيمان والقراءة والعمل والاستغناء بها عن الأخري وإهمالها لأن القرآن العظيم كل لايتجزأ ويجب الإيمان به كله والعمل به جميعه .

والكاف فى قوله «كصيب» بمعني: مثل، وصيب كلمة مضافة إلي مقدر، وتقدير الكلام: أو مثلهم كمثل ذوى صيب، ودل على هذا المقدر سياق الآيات وسباقها، وهذا المثل معطوف على المثل السابق .

والتشبيه فى المثلين تشبيه تمثيلى مركب لأنه فى كليهما تشبيه هيئة بهيئة كل منهما متعدد الأحوال والصفات .

وأخر المثل الثانى لأنه أول على فرط الحيرة وشدة الاضطراب ، وفظاعة الحال وسوء المآل وشناعة الموقف وبشاعته .

و«صيب» كسيد، معناه: المطر الغزير الذى ينزل وينحدر من جهة السماء، مأخوذ من: الصوب، وهو: النزول بشدة، وفعله: صاب يصوب .

وتنكير هذه الكلمة وبناؤها على هذه الصيغة يدل على غزارة المطر وهطوله وتواليه واستمراره .

و«السماء» لغة مأخوذة من : سما يسمو، وهي كل ما علاك وأظلك، ويطلق على السقف سماء، وعلى المطر سماء لأنه يأتى من جهتها، وتطلق الكلمة في الشرع والاصطلاح على السماء الحقيقية المقابلة للأرض،وهى سبع سماوات، والمقابل للأرض منها السماء الأولي .

والمطر ينزل من السحب التي تكونت بسبب تصاعد الأبخرة وإنعقادها وتراكمها ، وتأتي الأوامر من السماء بنزول المطر وتوزيعه وتصريفه.

أو أن أصل المطر ونواته يكون من السماء ، قال تعالي : ...

«أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون»[1]، وقال : «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا»[2].

---

(١) سورة الواقعة ٦٩

(٢) سورة النبأ ١٤

و« من » للإبتداء ، و« ظلمات » جمع ظلمة ، ونكرت وجمعت للدلالة علي كثرتها وشدتها وإطباقها وتنوعها أي ظلمة تكاثف المطر وتتابعه وظلمة الغمام وظلمة الليل وظلمة الاضطراب والتصرف.

وكلمة « فيه » للظرفية وتتضمن المصاحبة أي في هذا المطر الغزير المنهمر الهاطل من جهة السماء ظلمات كثيرة كثيفة مصاحبة له.

و« رعد » كلمة معطوفة علي « ظلمات » ، والرعد : هو الصوت العالي الذي يسمع وينبعث من السحب بسبب إصطكاك بعضها ببعض ، مأخوذ من : رعد يرعد رعدا .

و« البرق » : الضوء الذي يلمع بسبب الموجب والسالب في السحب، مأخوذ من : برق الشيء يبرق برقا وبريقا .

وتنكير الرعد والبرق يدل علي عظمهما ، فالرعد يقرع الآذان ويصخها ويكاد يصمها ،والبرق يلمع ويتوهج ويكاد سناه يذهب بالأبصار.

ولم يجمعا لأنهما مصدران ، ولأن كلا منهما نوع واحد.

« يجعلون أصابعهم في آذانهم .... »:وهذه الجملة مستأنفة ، وبينها وبين ماقبلها شبه كمال اتصال ، والضمائر فيها وفي مابعدها تعود علي ذوي الصيب وأصحابه .

و« الأصابع » جمع إصبع بكسر الهمزة وهي مؤنثة ، والذي يدخل الأذن هو رأس الإصبع وطرف الأنملة ، ففي الكلام مجازمرسل من إطلاق

الكل وإرادة الجزء ، أي العلاقة الكلية والجزئية ، أي كل واحد منهم يدخل طرف إصبعيه في أذنيه ، ويبالغ في إدخالهما خوفا من خطر الصواعق ، ومن شدة الاضطراب ، وفرط الدهشة ، وهول الموقف ، وسوء التصرف ، وقوة الذهول .

و« من » في قوله : من الصواعق : تعليلية وفيها معني السببية ، والصواعق : جمع : الصاعقة ، مشتقة من الصعق وهو شدة الصوت ، والصاعقة : نار تهبط باندفاع من جهة السماء ولا تدوم طويلا بل سرعان ماتنطفيء وتخمد ، وإذاً نزلت علي شيء أتلفته وأحرقته ، ونزلت الصواعق علي بعض كفار الأمم السابقة كثمود قوم صالح عليه السلام وبعض بني إسرائيل الذين سألوا موسي عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، ونسمع عن نزولها بين الحين والحين في بعض مناطق العالم وإتلافاتها ، وقانا الله شرها .

و« حذر » مفعول لأجله ، ويصح إعرابه حالا مؤولة بمشتق ، والحذر مصدر : حذر يحذر حذرا ، وهو أخذ الانتباه مع شدة الاحتياط والتوقي .

ومعني « حذر الموت » : خشية الموت ، وفيه إشعار بأنهم لم يموتوا إمهالا لا يلامهم وإملاء لتعذيببهم .

و« الموت » : انقضاء الحياه الدنيوية والانتقال من حياة إلي حياة ، ومن دار إلي دار ، ويكون بخروج الروح - أو النفس - من الجسد ، وتركه جسداً هامدا خامدا ، فهووسيلة إنتقال ، وليس عدما محضا ، ولا فناء

صرفا ، وإنما هو قنطرة ومعبر يوصل إلي الدار الآخرة وأمر وجودي مخلوق ، بدليل قوله تعالي : « الذي خلق الموت والحياة .. » [1] ، وبدليل الإتيان به يوم القيامة علي هيئة كبش» ويذبح علي الصراط ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

ولم يذكر خوفهم علي أعينهم بوضع شيء عليها يقيها الشر اكتفاء بما ذكر في جانب آذانهم ، وللإشعار بأنهم انشغلوا بتوقى آذانهم والمحافظة عليها عن توقي أعينهم ، ولأن الأعين يمكن إغلاقها بإطباق جفونها عليها أما الآذان فهي مكشوفة لاغطاء لها .

« والله محيط بالكافرين » جملة إعتراضية ختمت بها الآية الكريمة للدلالة علي سعة علم الله بأحوالهم وإدراكه لمواقفهم وأنهم لا يفوتونه ، ولا يهربون منه ولا يعجزونه ، ويلزم من إحاطته وعلمه بهم مجازاتهم بالسوآي والانتقام منهم رغم حيطتهم وحذرهم .

وذكر الاسم الظاهر « الكافرين » في موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم ووصمهم به وبيان أنه سبب غضب الله عليهم .

« يكاد البرق يخطف أبصارهم »:وهذه الجملة مستأنفة، و« يكاد »من أفعال المقاربة الدالة على قرب وقوع الخبر ولما يقع بالفعل،وكادتعمل عمل « كان »،وخبرها يكون فعلا مضارعا تقترث به« أن » الناصية أي جملة فعلية رهي لغة.ولا تقترن به « أن» فى اللغة الفصحى وهى التى نزل بها القرآن المجيد، فالخبرهنا جملة « يخطف » وهو غير مقترن بأن .

(١) سورة الملك ٢ .

و« يخطف » ماضيه خطف كسمع ، ومعناه : اخذ الشيء وسلبه بسرعة . وفي الكلمة إستعارة حيث شبه مقاربة البرق سلب أبصارهم بالخطف بجامع سرعة الإيذاء في كل، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه ، واشتق منه يخطف علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وزادها جمالا ورواء وسناء وبهاء تصوير البرق في صورة حيوان قوي يسلب ويخطف .

والجملة تفيد التجدد والتكرار ، أي يقارب البرق أن يسلب أبصارهم ويذهب بها بسرعة شديدة لشدته وقوة لمعانه .

ولم يذكر في الآية ما يدل علي شدة الرعد وقصفه اكتفاء بتنوينه الدال علي عظمه وقوته ، وبما ذكر في جانب البرق .

« كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » :

وهذه جملة مستأنفة ، وفي « كلما » معني الظرفية والشرط والتكرار ، و« أظلم » مشتق من الإظلام وهو حضور الظلمة بسبب ذهاب النور ، و« قاموا » أي ثبتوا في أماكنهم من قولك : قام الماء إذا ثبت ووقف وجمد .

فهم من شدة حيرتهم وذهولهم ودهشتهم وغمهم وهمهم وكربهم ينتهزون فرصة وميض البرق ولمعانه ويغتنمونها ، فحين يضيء ويومض يمشون في ضوئه ووميضه ، وحين يزول الضوء ويذهب الوميض وينمحي ويفاجأون بالإظلام يتوقفون عن المشي ويثبتون في أماكنهم متسمرين ، ويظلون في حيرة وترقب وتلهف .

وقوله « مشوا فيه » يدل علي قلة مشيهم وضعفه ووهن قواهم وخورها لأن ضوء البرق ووميضه لا يطول زمنه ولا يستمر.

و بين الجملتين الشرطيتين مقابلة

« ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ... » : وهذه جملة شرطيةتخبر بقدرة الله الواسعة المقتدرة علي ذهاب سمعهم وأبصارهم وذلك يكون بقوة قصف الرعد وشدة صوته ، وبقوة وميض البرق وشدة لمعانه وسناه ، أو بتعطيل آلتي السمع والبصر وطمسهما.

و« لو » حرف امتناع لامتناع أي امتنع وقوع جوابها لامتناع وقوع شرطها ، ومفعول المشيئة محذوف دل عليه الجواب ولا يذكر المفعول إذا جاءت في جملة شرطية إلا إذا كان أمرا غريبا عجيبا ، ومثلها كلمة« أراد ».

أي ولو شاء الله وأراد الذهاب بسمعهم وأبصارهم لذهب بسمعهم وأبصارهم لكنه لم يشأ رحمة منه بهم وإمهالاً لهم فبقى سمعهم وأبصارهم ولم يذهب بهما .

وإسناد الذهاب بهما إليه سبحانه للدلاله علي قوة قدرته وأن أي أحد لا يقدر مهما بذل ومهما كان أن يسترد ما أخذه الله وسلبه.وصدق الله العلي العظيم في قوله:« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم»[1]وقوله:« قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا » [2] ،والآيات في هذا المعني كثيرة وفيرة .

(١) سورة فاطر ٢

(٢) سورة الأحزاب ١٧

والجملة الكريمة صرحت بالمانع للذهاب بسمعهم وأبصارهم مع وجود ما يقتضيه ،ودلت علي أن تأثير الأسباب في المسببات وارتباطهما راجع إلى مشيئة الله وإرادته,وأن وجود المسببات وارتباطه بأسبابها راجع إلي مشيئته وقدرته،فلا يقع شيء إلا بمشيئته وعلمه جل وعلا .

وخص السمع والبصر بالذكر في الذهاب بهما لأنهما طريقا العلم ، وليبيان أهميتها ، فمن يسلب أغلي وأعلي المشاعر والحواس الذي حافظوا عليه وعملوا جهدهم علي وقايته يكون أقدر علي سلب غيره من باب أولي

« إن الله علي كل شيء قدير »: وهذه جملة تذبيلية تعليلية مقررة ومؤكدة لما سبق ، فمن يكون قديرا علي كل شيء يكون قديرا علي البعض وهو هنا الذهاب بسمعهم وأبصارهم ، وقديرا علي الإبقاء على وجودهما .

و« الشيء » مصدر شاء يشاء ، ويأتي بمعني اسم الفاعل وبمعني إسم المفعول ، وهو في أصل اللغة : كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، ويطلق علي الموجود حقيقة وفعلا، وعلي الموجود حكما وهو ما تعلقت قدرة الله بإيجاده وإن تأخر زمن وجوده ، أي يطلق علي الممكن سواء كان موجودا أو معدوما لأن القدرة تتعلق بالممكنات وحدها .

و« قدير » فعيل بمعني فاعل ، وهي صيغة مبالغة مشتقة من القدرة، تقول : قدرت علي الشيء ، أقدر ، قدرا ، وقدرة ، ومعناها : الفعال لما يريد علي قدر ماتقتضيه الحكمة ، ولا راد لقدرته ، ولا معقب لحكمه .

فالآية الكريمة الأولي تشبه المنافقين بمن استوقد نارا في غرض الانتفاع ، وإظهارهم الإيمان بالإضاءة في حسن المظهر وجمال الشكل والمنظر ، وانقطاع انتفاعهم بالإيمان بانطفاء النارفي المكابدة والإهمال وعدم الانتفاع والفائدة .

أما الآية الثانية فتشبه دين الإسلام وتتابع نزول الوحي علي رسول الله ﷺ بالصيب فى إحياء الموات،فالإسلام يحيى القلوب والنفوس الميتة كما يحيى الصيب الأرض بعد موتها ، وتشبه شبهات المنافقين بالظلمات في محاولة التعطيل والتعويق عن الإيمان ، والوعد والوعيد الواردان في القرآن والبلايا والأفزاع والهلع والفضائح التي تكشف المنافقين بالصواعق في الإيلام والإيذاء والإيجاع والإزعاج.

ففي الآيتين تمثيل صادق ، وتشبيه ناطق ، يطابق الحق والواقع ، ويبرز المعاني المعقولة في صورة محسوسة ، لتستقر في الأذهان ، وتترسخ في القلوب والعقول ، وهو تمثيل مركب كما علمت عن كثب .

قال الإمام الهمام فخر الدين الرازي : والتشبيه ههنا في نهاية الصحة لأنهم بإيمانهم أولا اكتسبوا نورا ، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك النور ووقعوا في حيرة عظيمة ، فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين ، لأن المتحير في طريقه لأجل الظلمة لا يخسر إلا القليل من الدنيا ، وأما المتحير في الدين فإنه يخسر نفسه في الآخرة أبد الآبدين [١] .

---

(١) التفسير الكبير للرازي حـ٢ صـ٧٣

وقال الحافظ ابن كثير: وذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلي أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين ، وتكون « أو » في قوله تعالي: أو «كصيب » بمعني الواو كقوله تعالي : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا »[١] ، أو تكون للتخيير أي اضرب لهم مثلا بهذا وإن شئت بهذا ، أو للتساوي مثل :« جالس الحسن أو ابن سيرين » ..

قلت - والقول لابن كثير - : وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين ، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالي في سورة براءة بقوله : « ومنهم من يقول ائذن لي .. »« ومنهم من عاهد الله .. » «ومنهم من يلمزك في الصدقات .. » إلخ[٢] فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم[٣] .

هذا ، ولم يحارب رسول الله ﷺ المنافقين ولم يقض عليهم ويتخلص منهم رغم علمه بكفرهم ومعرفته ببعض أشخاصهم وأعيانهم لأنه خشي أن يتقول بعض الناس عليه ويزعموا أنه يقتل أصحابه دون علمهم ودرايتهم بحقائق الأمور وملابساتها.

أخرج الشيخان والترمذي وأحمد بأسانيدهم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما حديثا طويلا مضمونه:أن رسول الله ﷺ كان في غزوة بني المصطلق ومعه المهاجرون والأنصار وفي أثناء عودتهم وقع نزاع بين

(١) سورة الإنسان ٢٤

(٢) سورة التوبة ٤٩/٥٨/٧٥

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ صـ٥٦

أحد المهاجرين وأحد الأنصار ، وتحركت الضغينة وثارت البغضاء في نفس عبد الله بن أبي بن سلول ونطق بكلام فيه إيذاء لرسول الله ﷺ وللمهاجرين، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ؟

فقال النبي ﷺ : دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

وجاء في رواية في مسند أحمد أن الرجل الذي آذي رسول الله ﷺمن بني تميم ، وكان ذلك أثناء تقسيم الرسول ﷺ لغنائم هوازن بين الناس بالجعرانة وأن رسول الله ﷺ قال لعمر رضي الله عنه : معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمدا يقتل أصحابه [1].

ومن خلال الروايات يتضح أن إيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ تكرر ، وأن رده على عمر رضي الله عنه وموقفه منهم ثابت لم يتغير .

وقانا الله شر النفاق والمنافقين، وجعلنا من المؤمنين الصادقين .

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب المناقب باب ماينهي من دعوة الجاهلية جـ٤ صـ٢٢٣ وكتاب التفسير سورة المنافقين جـ٦ صـ١٩١ وصحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصدقة والآداب باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما جـ٥ صـ٤٤٥ وسنن الترمذي أبواب التفسير سورة المنافقين جـ٥ صـ٩٠ ومسند أحمد جـ٣ صـ٣٥٥ ســ٣٩٣ ،